القصور العوالى

للإمام حجة الإسلام

أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى

• القسطاس المستقيم • منهاج العارفين

• الرسالة اللدنية • فيصل التفرقة

• أيها الولد

فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى أبو العلا

المدير العام للتعليم الابتدائى والخاص بالأزهر الشريف

الجزء الأول

يطلب من

مكتبة الجندى

بسيدنا الحسين بمصر تليفون ٩٠١٥١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى

الحمد لله الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، إمدادا لأنوار هدايته ، وأشهد أن لا إله إلا الله فضل المهتدين ، ورفع قدر مرشديهم إلى الاستقامة ومحبته ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله خير من هدى ، وإلى الله دعا ، وفى الخير سعى ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه غيوث الندى ، وأئمة الهدى ، وليوث الجهاد فى سبيل الله .

أما بعد : فمن السادة العلماء الهداة ، المرشدين الدعاة إلى الله ـ الإمام الذى تتابعت الأجيال ـ منـــذ وجوده . . على إجلاله ، والاحتفال بثمار أفكاره ، وقدر مؤلفاته الجامعة المشرقة ، والكافية النيرة ، صاحب الإحياء ، الذى من طالعه متدبرا ووقف عند حدوده ـ كان من الأحياء ، ذلكم حجة الإسلام ، وأحد رواد الحكمة الإسلامية الذكى الزكى ، البهى العلى ، الذى أوتى ـ مع سعة الأفق ، وبسطة العلم ـ قوة بيان ، ونصاعة تبيان ، أبو حامد ، محمد بن محمد الغزالى ، الذى وفقه تبارك وتعالى لمجموعات من الكتب والرسائل فى علوم كثيرة ، ولقد أفاد بها وأجاد ، وانتفع بها كثير من العباد ، فى مشارق

الأرض ومغاربها ، وإذا كانت مؤلفاته باللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ـ فلقد قيض الله لبعضها من ترجمها إلى غير العربية ، وذلك دليل إخلاصه فيما كتب ، وشاهد فضل ما وهبه جل وعز من جزيل الهبات ، وجليل العطايا ، وعظيم الإمدادات ، والانسان يسعى إلى ما فيه خيره وفائدته ، فطلاب الحكمة والعلم النافع ، والمعرفة الصافية الوافية ـ يجدونها فى مصنفات الغزالى كبيرها وصغيرها ، فأذاعها ذلك ، ونشرها فى أرجاء المعمورة ، وقد عنى بنشرها العالم الإسلامى عناية فائقة ، فمن الناشرين من نشرها مستقلة كتابا كتابا ، ورسالة رسالة ، ومنهم من نشرها بمجموعات منسقات .

ولقد وفق الله تعالى السيد محمد على الجندى ، لنشر كثير منها كذلك ، وكلها تدعو إلى حياة القلوب ، وصفاء الأرواح ، وزيادة الإيمان ، وسعادة الدارين .

وقد جاء اليوم السيد المذكور مشكورا بمجموعة جديدة من النفحات الغزاليه تسمو بالروح إلى أوج العزة والسعادة فى درجة رفيعة ، وتحيي القلوب إحياء يخلق من أصحابها فضلاء نبلاء ، أهلا لنظر قيوم الأرض والسماء ، بها الحكمة مشرقة ، والتصوف جـــلى ، والعقيدة محققة ، والمواعظ الموقظة متدفقة ، والإرشادات السنيات واضحات ، ولفت النفوس إلى الحقائق ، قوى الجاذبيـــة ، وموازين الأمور مقامة بإحسان ودقة ، والمسائل الدنيوية مبينة الإفادة منها برشد ، والمسائل الأخروية فيها جوابها منيف، واضح شريف ، وأنوار

المعرفة بها لائحة ، والحق فيها ثابت الدعائم ، فهى - حقا - مشكاة الأنوار ومنهاج العارفين ، والقسطاس المستقيم ، ولكسب الخير موجبة ، وعن الشر لافتة ، وهى تدعى - لعلو قدرها بعظيم مخزونها وعزيز محتوياتها - القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى : وهى جزءان : يضم الجزء الأول القسطاس المستقيم ومنهاج العارفين ، والرسالة اللدنية ، وفيصل التفرقة ، وأيها الولد ، وهو هذا الجزء الذى بين يديك - أيها القارىء .

ويضم الجزء الثانى — مشكاة الأنوار ورسالة الطير والرسالة الوعظية وإلجام العوام عن علم الكلام والمضنون به على غير أهله والأجوبة الغزالية فى المسائل الأخروية وهو المضنون الصغير .

وإذا كانت الأمثال تؤثر فى النفوس أبلغ تأثير ، وتهدى العقول إلى المفاهيم بكمال ، فتقتنع تماما بما يراد منها — فإنها من أحسن الوسائل فى الدعوة إلى ما يراد ، والغزالى — فى ضرب الأمثال — آية من آيات الله الحكيم الواسع المدد والعطاء (والله واسع عليم) ، فالقارىء — لا شك — واجد من روائع الأمثال فى كتابة الغزالى — ما يملك لبه ، ويهدى قلبه ، وكذلك عشاق العبارة المحكمة المتقنة الرزينة — يعشقون أسلوب الغزالى ، فيحرصون على القراءة له ، ولا يعدم القارىء للغزالى جم الفوائد ، وكثير العوائد ، فى لذة وابتهاج ، ومن ثم كان من ينشر للغزالى مؤلفا — مهديا جوهرا وهدية غالية ، للقراء الكرام وإذا كان من يهدى للبدن طعاما شهيا مشكورا — فأحق بالشكر من يهدى

للقلب والعقل والروح الطعام الشهى والغذاء البهى السنى ، وأحق منه بالشكر صانع هذا الطعام ، وهذا الغذاء ، والغزالى - بدليل إخلاصه يرى الشكر له - مع خالص الدعاء له - أن يشكر المنتفع بما صنع - لله صاحب الفضل أولا وآخرا (الله خالق كل شيء) (والله ذو الفضل العظيم) ، وفى القرآن الكريم ايضا : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد) (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) والشكر له تعالى - أن يصرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فيعمل بما تعلم من علم فى هذه المجموعة التى بين يديه من كتب الغزالى ونحوها مما تضمن العلم النافع ، الذى يعرف بالله . وما خلقنا إلا لمعرفته تعالى وعبادته ؛ (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) والإصابة بالبلية نعمة تشكر من حيث ثواب الصبر عليها ، الذى يهتدى إليه مطمئن القلب بما أفاد من هاديات فى هذه المجموعة الغزالية المباركة ، ولتنتبه لقول من قال :

إذا أعطى فقد أرضى ولكن ... إذا أخذ الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكراً ... وأجمد عند منقلب إيابا
أنعمته التى أهدت ثناء ... أم الأخرى التى أهدت ثوابا

ولقد ولد الإمام الغزالى بمدينة طوس من مدن خراسان سنة ٤٥٠ ه (١٠٥٨ م) وتوفى والده قبل بلوغ سن الرشد ، فنشأ معتمدا على نفسه ، مقبلا إلى طلب العلم وتحصيله والتبحر فيه ، بباعث من

نفسه ودافع فطرى ؛ وعزم يشهد بعظم نفسه النيرة ؛ وقد تلقى مبادىء العربية والفقه ببلده ، وانتقل إلى جرجان وقرأ بها مبادىء الأصول ، على أحد أعلامها ، ثم عاد إلى طوس ولم يمكث بها إلا قليلا بعد رجوعه من جرجان إليها ، حتى قصد نيسابور ، حيث لازم إمام الحرمين الجوينى مدة ، انتهت بوفاة الجوينى سنة ٤٧٧ ﻫ ، فانتقل إلى العراق ، وقد سبق اسمه إلى تلك الآفاق ، فاتصل بالوزير نظام الملك ، ففوض إليه مهمة التدريس بمدرسته — النظامية — ببغداد سنة ٤٨٤ ﻫ ؛ وأقام بها ينشر العلم بالتدريس ، ويصنف الكتب مدة أربع سنين مرض على أثرها مرضا اضطره إلى فراق العراق ؛ فرحل إلى الحجاز ، وحج ، ثم جاء فلسطين ، واقام بالقدس نحو سنتين ورحل إلى مصر، فنزل بالاسكندرية ، وعاد بعد ذلك إلى مسقط راسه — طوس — وانقطع للعبادة فألزمه فخر الملك بن نظام الملك التدريس بمدرسته بنيسابور ، فدرس بها مدة قصيرة ، ثم عاد إلى طوس ولزم بيته حتى مات سنة ٥٠٥ ﻫ (١١١١ م) ودفن بمقبرة الطابران بطوس ، طيب الله ثراه ، وأحسن عقباه وجعل الجنة مستقره ومثواه .

ولعل من خير القول فى خاتمة هذه المقدمة التنويه بالعناية والمعنى بالكتب الغزالية ، وما خطه قلم الغزالى فمن دعا إلى قراءة كتب الغزالى — دعا إلى تحصيل العلم بتعقل وتمحيص .

والعز بالعلم لا بالجاه والمال والمجد بالفضل لا بالعلم والخال

فكل عز بغير العلم منقطع والفضل بالعلم عنه خير أعمال

ولعل من الخير لفت الأنظار إلى ما أخرجته مكتبة الجندى من آثار قلم الإمام الغزالى : فقد أخرجت مع جزأى القصور العوالى - كتاب : الحكمة فى مخلوقات الله ، ومعه كتاب معراج السالكين ، وكتاب روضة الطالبين ومعه كتاب قواعـــد العقائد ، وخلاصة التصانيف : فى التصوف ، ومجموعة منهاج العابدين والكشف والتبيين وبداية الهداية ، ومجموعة المنقذ من الضلال ، وكيمياء السعادة ، والقواعد العشرة . والأدب فى الدين ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب الأربعين فى أصول الدين ، وجواهر القرآن ، ومعارج القدس فى معرفة أحوال النفس ، وقانون التأويل ، وسر العالمين ، والدرة الفاخرة ، والتبر المسبوك فى نصائح الملوك ، والمقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى : نفع الله بها آمين ؟

محمد مصطفى أبو العلا
الشهير بحامد

بسم الله الرحمن الرحيم

القسطاس المستقيم

أحمد الله تعالى أولا ، وأصلى على نبيه المصطفى ثانياً ، وأقول : إخوانى هل فيكم من يعيرنى سمعه لأحدثه بشيء من أسمارى ، فقد استقبلنى فى أسفارى . رفيق من رفقاء أهل التعليم وغافصنى[1] بالسؤال والجدال . مغافصة من يتحدى[2] باليد البيضاء . والحجة الغراء[3] وقال لى أراك تدعى كمال المعرفة . فبأى ميزان تزن حقيقة المعرفة . أبميزان الرأى والقياس[4] وذلك فى غاية التعارض

---

(١) غافصنى : فاجأنى وأخذنى على غرة والغرة الخدعة والطمع بالباطل .

(٢) من يتحدى : من يبرز ويتعمد وينازع الغلبة .

(٣) الحجة ـ بكسر الحاء ـ السنة ـ وبالضم ـ البرهان وما دوفع به الخصم . والغراء : البيضاء .

(٤) الرأى : استنباط الفكر ، وأصحاب الرأى يطلق على أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه، لأنه أول من قرر قواعد الفقه ومهد أساس الاجتهاد. وفلان من أهل الرأى أى أنه يرى رأى الخوارج ويقول بمذهبهم وعند المحدثين يطلق على أصحاب القياس لأنهم يأخذون بآرائهم فيما يشكل من الحديث أو لم يأت فيه حديث ولا أثر. والقياس لغة تقدير الشيء على غيره وعند أرباب المعقول =

والالتباس[١] ولأجله ثار الخلاف بين النـــاس . أم بميزان التعليم فيلزمك اتباع الإمام المعصوم[٢] المعلم وما أراك تحرص على طلبه فقلت أما ميزان الرأى والقياس . فحاش لله أن أعتصم به فإنه ميزان الشيطان . ومن زعم من أصحابى أن ذلك ميزان المعرفة . فأسأل الله تعالى أن يكفينى شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل . وهو شر من عدو عاقل . ولو رزق سعادة مذهب أهل التعليم . لتعلم أولا الجدال من القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى (ادع إلى سبيل ربك[٣] بالحكمة[٤]

= كالمناطقة والأصوليين والمتكلمين له أقسام كثيرة منها : القياس البرهانى : وهو المؤلف من مقدمات قطعية لافادة اليقين . والجدلى : وهو المؤلف من قضايا مشهورة أو مسلمة لإلزام الخصم بحفظ الأوضاع أو هدمها . والخطابى : وهو المؤلف من قضايا ظنية مقبولة اوغير مقبولة لاقناع من هو قاصر عن إدراك البرهان ويعبر عنه بالظنى . والشعر المركب من قضايا مخيلة لإفادة القبض أو البسط فى الإحجام والإقدام . والمغالطى : وهو المركب من قضايا مشبهة بالمشهورات ويسمى شغبا أو بالأوليات ويسمى سفسطة .

(١) التعارض : التمانع . والالتباس : الاختلاط والاشتباه .

(٢) المعصوم : اسم مفعول من العصمة وهى الوقاية من كل الموبقات ولا تكون إلا فى الأنبياء عليهم السلام .

(٣) ادع إلى سبيل ربك : أى دين ربك وهو دين الإسلام .

(٤) الحكمة : وضع الأشياء فى محلاتها . والمراد منها هنا المقالة الصحيحة المحكمة . وهى الدليل الموضح المزيل للشبهة .

والموعظة الحسنة[1] وجادلهم بالتى هى أحسن[2]) وعلم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا[3] منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى . وأن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن

(١) الموعظة الحسنة : ما تضمنه الكتاب العزيز من الرغبة والرهبة والإنذار مع إيقافك خصمك على خالص نصحك له.

(٢) وجادلهم بالتى هى أحسن : بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين . ومن هذا التفصيل تبين أن الناس على ثلاثة أقسام القسم الأول : هو العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون الأشياء على حقائقها. فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أى بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها فينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم وهم أفراد. والقسم الثانى: هم أصحاب الفطرة السليمة الأصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوسط الأقسام المشار إليهم بقوله: والموعظة الحسنة . أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة . والقسم الثالث : هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار إليهم بقوله : وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه لينالوا السعادة وعلى هذا كثير من المفسرين .

(٣) اشمأز : نفر وانقبض واجتمع بعضه إلى بعض .

غذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر أو البلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر ، وليته[1] كانت له أسوة حسنة كما تعلم من القرآن فى إبراهيم الخليل — صلوات الله عليه — حيث حاج خصمه[2] فقال : (ربى الذى يحيى ويميت[3]) فلما رأى أن ذلك[4] لايناسبه[5] وليس حسناً عنده حين قال : (أنا أحيى وأميت) عدل[6] إلى الأوفق

---

(١) ليته : الضمير راجع إلى من زعم من أصحابى الخ .

(٢) خصمه: الضمير يعود إلى نمرود بن كنعان الجبار وقيل: ابن كوش وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض وادعى الربوبية إلى أن هلك وكان ملكا على بابل والأهواز وسواد العراق .

(٣) ربى الذى يحيى ويميت : هذا حد أصغر من الشكل الأول من القياس الاقترانى. والحد الأكبر: محذوف من النتيجة وتقريره. ربى الذى يحيى ويميت وكل من يحيى ويميت فهو إله حقيق ينتج: فربى الذى يحيى ويميت إله حقيق وقد وقع هذا الدليل جوابا لسؤال مقدر من طرف نمرود تقديره: من ربك ؟ فقال إبراهيم عليه السلام ربى الخ .

(٤) ذلك : أى القياس الذى أقامه الخليل .

(٥) لا يناسبه. لايقنع به نمرود لأنه زعم أنه مالك رقاب رعيته مطلق فى تصرفاته . فإذا قتل كان بحق وإذا عفا كان كمن عفا عن الشىء بعد قدرته عليه ولذا قيل إنه دعا برجلين فقتل أحدهما وعفا عن الآخر جاعلا ترك القتل له إحياء .

(٦) عدل : مال الخليل عن دليله الأول إلى مايلائم طبع نمرود ويقرب الفهم إليه لأن حجه الخليل لازمة وحجة نمرود باطلة قياسا وعقلا حيث القصد

لطبعه والأقرب إلى فهمه فقال : (إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) . ولم يركب الخليل ظهر اللجاج[١] فى تحقيق عجزه عن إحياء الموتى إذ علم[٢] أن ذلك يعسر عليه فهمه فإنه ظن أن القتل إماتة من جهته وتحقيق ذلك[٣] لا يلائم قريحته[٤] ولا يناسب حده فى البصيرة(٥) ودرجته ، ولم يكن من قصد الخليل إفناؤه(٦) بل إحياؤه ، والتغذية بالغذاء الموافق إحياء . واللجاج بالإرهاق(٧) إلى ما لا يوافق إفناء . فهذه دقائق لا تدرك إلا بنور التعليم المقتبس من إشراق عالم النبوة فلذلك حرموا التفطن له إذ حرموا من سر مذهب التعليم . فقال : اذا استوغرت سبيلهم

= من الإحياء إحياء الموتى والنمرود قصد بالإحياء العفو مع القدرة فاختلف القياس . فكان للخليل أن يلزمه بالعجز بقوله : أحي من قتلت ولكنه عدل إلى مالا يأتى فيه مغالطة مجاراة لخصمه .

(١) اللجاج : شدة التمادى على الشيء وعدم الانصراف عنه والضمير فى عجزه عائد الى نمرود .

(٢) علم : أى الخليل أن البرهان السابق يعسر فهمه على نمرود ، لأنه ظن من قتله للرجل اماتة من طرفه .

(٣) وتحقيق ذلك : أى إظهار وإيضاح تلك المناظرة .

(٥) البصيرة : عقيدة القلب .

(٦) أى إعدامه بإفحام المناظرة .

(٧) الإرهاق : التكلفه والعسر .

واستوهنت دليلهم فبماذا تزن معرفتك ؟ فقلت : أزنها بالقسطاس المستقيم(١) ليظهر لى حقهـا وباطلها . ومستقيمها ومائلها : اتباعاً لله تعالى وتعلما من القرآن المنزل على لسان نبيه الصـادق حيث قال : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) : فقال : وما القسطاس المستقيم ؟ قلت : هى الموازين الخمس التى أنزلها الله فى كتابه وعلم أنبياءه الوزن بها . فمن تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزن بميزان الله فقد اهتدى . ومن ضل عنها إلى الرأى والقياس فقد ضل وتردى . فقال : أين الموازين فى القرآن وهل هـذا إلا إفك وبهتان ؟ (٢) قلت : ألم تسمع قوله تعالى فى سورة الرحمن : (الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيـان) إلى قوله : (ووضع الميزان (٣) أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميـزان) ألم تسمع قوله فى سورة الحديد : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضة ؟ أتتوهم أن الميزان المقابل وضعه برفع السماء فى قوله : (والسماء رفعها ووضع الميزان) هو الطيار

---

(١) القسطاس المستقيم : أقوم الموازين وأعدلها .

(٢) الإفك : الكذب وحديث الباطل . والبهتان : الافتراء .

(٣) الميزان : العدل : لأنه آلة روحانية توزن بها كل الأشياء وتعرف مقاديرها ، والميزان هنا العدل ، وقيل الآلة التى يوزن بها وترجع الى العدل . وأول من نزل بالميزان جبريل فدفعه الى نوح عليه السلام ، وقال له : مر قومك يزنوا به . والله أعلم .

والقيان ، وما أبعد هـذا الحسبان . وأعظم هـذا البهتان . فاتق الله ولا تعسف[١] فى التأويل : واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا هم من ملائكته . فإن الله تعالى هو المعلم الأول . والثانى جبريل ، والثالث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ماليس لهم طريق إلى المعرفة به إلا بهم . فقال : فبم عرفت أن ذلك الميزان صادق أم كاذب ؟ أبعقلك ونظرك ؟ فالعقول متعارضة . أم بالإمام المعصوم الصادق القائم بالحق فى العالم ؟ وهو مذهبى الذى أدعو إليه . فقلت : ذلك أيضا أعرفه بالتعليم ولكن من إمام الأئمة محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم فإنى وإن كنت لا أراه فإنى أسمع تعليمه الذى تواتر إلى تواتراً لا أشك فيه : وإنما تعليمه القرآن . وبيان صدق موازين القرآن معلوم من نفس القرآن . فقال : (هات برهانك) [٢] وأخرج من

---

(١) التعسف : السير بغير هداية . وفى نسخة : لاتتعصب من العصبية وهى أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته ظالمين أو مظلومين . ثم أطلق التعصب على من يعلم الحق ويميل عنه طمعا فى نيل شهواته وأغراضه الخاصة .

(٢) البرهان فى اللغة الحجة الفاصلة البينة القاطعة للدد الخصم . وعند المناطقة قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين ، واليقينيات ستة : أوليات . مشاهدات حسية ، مشاهدات وجدانية ، مجربات ، متواترات . قضايا ملتصقة بالقياس .

القرآن ميزانك . وأظهر لى كيف فهمت من نفس القرآن صدقه وصحته .
فقلت له حدثنى أنت بم تعرف صحة ميزان الذهب والفضة وصدقه
ومعرفة ذلك فرض دينك إذا كان عليك دين حتى تقضيه تاماً من غير
نقصان . أو كان لك على غيرك دين حتى تأخذه عدلا من غير رجحان
فإذا دخلت سوقاً من اسواق المسلمين . وأخذت ميزاناً من الموازين .
وقضيت أو استقضيت به الدين . فبم تعرف أنك لم تظلم بنقصان فى
الاداء أو برجحان فى الاستيفاء . وقال : أحسن الظن بالمسلمين .
وأقول إنهم لا يشتغلون بالمعاملة إلا بعد تعديل الموازين . وإن عرض
لى شك فى بعض الموازين . اخذته ورفعته . ونظرت إلى كفتى الميزان
ولسانه . فإذا استوى انتصاب اللسان من غير ميل إلى أحد الجانبين
ورأيت مع ذلك تقابل الكفتين . عرفت أنه ميزان صحيح صادق .
قلت . هب[1] أن اللسان قد انتصب على الاستواء . وان الكفتين
متحاذيتان على السواء . فمن أين تعلم ان الميزان صادق فقال : أعلم
ذلك علما ضروريا يحصل لى من مقدمتين . إحداهما تجريبية .
والأخرى حسية — اما التجريبية فهى أنى علمت بالتجربة أن الثقيل
يهوى إلى أسفل ، وأن الأثقل أشد هوياً فأقول : لو كانت إحدى
الكفتين أثقل لكانت أشد هوياً ، فهذه مقدمة كلية تجريبية حاصلة
عندى ضرورة . والمقدمة الثانية هى أن هذا الميزان بعينه رأيته لم

---

(١) هب كلمة تستعمل لمجاراة الخصم بمعنى أفرض لو سلمنا كذا .

تهو إحدى كفتيه بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة . وهذه مقدمة حسية شاهدتها بالبصر فلا أشك لا فى المقدمة الحسية ولا فى الأولى وهى مقـــدمة التجربة . فيلزم فى قلبى من هاتين المقدمتين نتيجة ضرورية وهى العلم باستواء الميزان . إذ أقول : لو كانت إحداهما أثقل لكانت أهوى ومحسوس أنها ليست بأهوى ، فمعلوم أنها ليست بأثقل . قلت له : فهل هذا إلا رأى وقياس عقلى . قال : هيهات فإن هذا علم ضرورى لزم من مقامات يقينية حصل اليقين بها من التجربة والحس فكيف يكون هذا رأياً وقياساً . والرأى والقياس حدس[1] وتخمين . لايفيدان برد اليقين . وأنا أحس فى هذا برد اليقين . قلت فإن عرفت صحة الميزان . بهذا البرهان فبم عرفت الصنجة[2] والمثقال . فلعله أخف أو أثقل من المثقال الصحيح فقال : إن شككت فى هـــذا أخذت عيارة من صنجة معلومة عندى فأقابلها بها فاذا ساوى علمت أن الذهب إذا ساواه كان مساوياً لصنجتى فان المساوى للمساوى مساو . قلت . هل تعلم واضع الميزان فى الأصل من هو ، وهل هو الواضع الأول ؟ والذى وضعه يعلم هذا الوزن قال . لا : ومن أين أحتاج إليه وقد عرفت صحة الميزان بالمشاهدة والعيان . بل آكل البقل من حيث يؤتى به ولا أسأل عن المبقلة ، فان واضع الميزان لايراد لعينه بل يراد ليعرف منه صحة الميزان وكيفية الوزن به . وأنا قد عرفته

(١) الحدس الظن والتوهم .

(٢) صنجه الميزان عياره أو معياره وهى فارسية معربة .

كما حكيته . وعرفته . فاستغنيت عن مراجعة صاحب الميزان عند كل وزن ، فان ذلك يطول ولا يظفر به فى كل حين مع أنى فى غنية عنه . قلت فإن أتيتك بميزان فى المعرفة مثل هـذا وأوضح منه وأزيد عليه بأنى أعرف واضعه ومعلمه ومستعمله فيكون واضعه هو الله تعالى ومعلمه جبريل ومستعمله الخليل ومحمد وسائر النبيين عليهم السلام أجمعين . وقد شهد الله تعالى لهم فى ذلك بالصدق . فهل تقبل ذلك منى ؟ وهل تصدق به ؟ فقال إى والله : وكيف لا أصدق به إن كان فى الظهور مثل ما حكيته لى . فقلت : الآن أتوسم فيك شمائل الكياسة[1] . وقد صدق رجائى فى تقويمك وتفهيمك حقيقة مذهبك فى تعليمك فأكشف لك عن الموازين الخمس . المنزلة فى القرآن لتستغنى به عن كل إمام وتجاوز حد العميان فيكون إمامك المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقائدك القرآن ، ومعيارك المشاهدة والعيان . فاعلم أن موازين القرآن فى الأصل ثلاثة : ميزان التعادل ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند . لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إلى الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فيصير الجميع خمسة .

---

(١) شمائل جمع شمال وهى خليقة الرجل والكياسة : إظهار العقل والظرف

القول فى الميزان الأكبر من موازين التعادل

ثم قال لى هذا الرفيق الكيس من رفقاء أهل التعليم اشرح لى الميزان الأكبر من موازين التعادل أولا واشرح لى معنى هذه الألقاب وهى التعادل والتلازم والتعاند ، والأكبر والأوسط والأصغر ، فإنها ألقاب عجيبة . ولا أشك فى أن تحتها معانى دقيقة . فقلت : إما معنى هذه الألقاب فلا تفهمها إلا بعد شرحها وفهم معانيها لتدرك بعد ذلك مناسبة ألقابها لحقائقها . وأعلمك أولا أن هذا الميزان يشبه الميزان الذى حكيته فى المعنى دون الصورة فإنه ميزان روحانى . فلا يساوى الجسمانى . ومن أين يلزم أن يساويه والموازين الجسمانية أيضاً تختلف . فإن القلسطون (١) ميزان والطيار ميزان بل الاصطرلاب ميزان لمقادير حركات الفلك والمسطرة ميزان لمقادير الأبعاد فى الخطوط والشاقول ميزان لتحقيق الاستقامة والانحناء . وهى وإن اختلفت صورها مشتركة فى أنها تعرف بها الزيادة والنقصان . بل العروض ميزان الشعر يعرف به أوزان الشعر ليتميز منزحفه عن مستقيمه وهو أشد روحانية من الموازين المجسمة ولكنه غير متجرد عن علائق الأجسام لأنه ميزان الأصوات ولا ينفصل الصوت عن الجسم . وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة إذا به توزن أعمال العباد وعقائدهم ومعارفهم ،

---

(١) القلسطون والطيار هما ميزانان من أنواع الموازين الجسمانية واسمهما اصطلاحى فى عصر المؤلف وبعضهم فسر القلسطون بالقبان .

والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام ولذلك كان ميزانهما روحانياً صرفاً ، وكذلك ميزان القرآن للمعرفة روحانى لكن يرتبط تعريفه فى عالم الشهادة بغلاف لذلك الغلاف التصاق بالأجسام وإن لم يكن جسماً فإن تعريف الغير فى هذا العالم لا يمكن إلا مشافهة وذلك بالأصوات . والصوت جسمانى أو بالمكاتبة وهى الرقوم وهى أيضاً نقش فى وجه القرطاس وهو جسم . هذا حكم غلافه الذى يعرض فيه وإنما هو فى نفسه روحانى محض لا علاقة له مع الأجسام إذ توزن به معرفة الله الخارجة عن عالم الأجسام المقدس عن أن يناسب الجهات والأقطار فضلا عن نفس الأجسام ولكنه مع ذلك ذو عمود وكفتين ، والكفتان متعلقتان بالعمود فالعمود مشترك فى الكفتين لارتباط كل واحدة منهما به هذا فى ميزان التعادل وأما ميزان التلازم فهو بالقبان أشبه لأنه ذو كفة واحدة ولكن يقابلها من الجانب الآخر الرمانة وبها يظهر التفاوت والتقدير . فقال : هذه طنطنة عظيمة فأين المعنى فإنى أسمع جعجعة [1] ولا أرى طحناً . فقلت له : اصبر (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً) واعلم أن العجلة من الشيطان والتأنى من الله . واعلم أن الميزان الأكبر [2] هو ميزان الخليل صلوات

---

(١) أسمع الخ : هذا مثل للعرب يضرب للرجل الذى يكثر الكلام ولا يعمل أو يعد ولا يفعل . والجعجعة : صوت الرحى والطحن الدقيق فعل بمعنى مفعول والمراد هنا أرى مقدمات ولا أرى نتيجة .

(٢) الميزان الأكبر : كناية عن الشكل الأول ، لأن حده الأوسط محمول

الله عليه وسلامه الذي استعمله مع نمرود فنه تعلمنا هذا الميزان لكن بواسطة القرآن وذلك أن نمرود ادعى الالهية وكانت الإلهية عندد بالاتفاق عبارة عن القادر على كل شيء . فقال إبراهيم الإله إلهي لأنه الذي يحيي ويميت وهو القادر عليه وأنت لاتقدر عليه . فقال : (أنا أحيي وأميت) يعني أنه يحيي النطفة بالوقاع ويميت بالقتل فعلم إبراهيم عليه السلام أن ذلك يعسر عليه فهم بطلانه فعدل إلى ماهو أوضح عنده . فقال : (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) وقد أثنى الله عليه فقال (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) فعلمت من هذا أن الحجة والبرهان في قول إبراهيم وميزانه . فنظرت في كيفية وزنه كما نظرت أنت في ميزان الذهب والفضة فرأيت في هذه الحجة أصلين قد ازدوجا فتولد منهما نتيجة هي المعرفة إذ القرآن مبناه على الحذف والإيجاز . وكمال صورة هذا الميزان أن تقول كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الاله . فهذا أصل . وإلهي هو القادر على الاطلاع وهذا أصل آخر . فلزم من مجموعهما أن إلهي هو الإله دونك يا نمرود . فانظر الآن هل يمكن أن يعترف بالأصلين معترف ثم يشك

= في الصغرى وموضوع في الكبرى كما سيجيء عند قوله : (إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) لأن ذلك الدليل في قوة أنت لاتقدر أن تأتي بالشمس من المغرب وكل من لايقدر أن يأتي بالشمس من المغرب فليس برب. فأنت لست برب لأن المقدر بين مقدمتي القياس لاتقدر أن تأتي بالشمس من المغرب وهو محمول الصغرى وكل من لايقدر أن يأتي بالشمس من المغرب فليس برب موضوع الكبرى فينتج أنت لست برب وهو تقرير الشكل الأول

فى النتيجة ، أو هل يتصور أن يشك فى هذين الأصلين شاك ؟ فإن قولنا الإله هو القادر عل إطلاع الشمس لايشك فيه لأن الاله كان عندهم وعند كل أحد عبارة عن القادر على كل شىء ، وإطلاع الشمس هو من جملة تلك الأشياء وهذا أصل معلوم بالوضع والاتفاق . وقولنا القادر على الاطلاع هو الله تعالى دونك معلوم بالمشاهدة فإن عجز نمرود وعجز كل أحد سوى من يحرك الشمس مشاهد بالحس ونعنى بالاله محرك الشمس ومطلعها . فيلزمنا من معرفة الأصل الأول المعلوم بالوضع المتفق عليه . ومن الأصل الثانى المعلوم بالمشاهدة أن نمرود ليس هو القادر على تحريك الشمس . فنعلم بعد معرفة هذين الأصلين أن نمرود ليس باله وإنما الإله هو الله تعالى . فراجع نفسك الآن هل ترى هذا أوضح من المقدمة التجريبية والحسية اللتين بنيت[1] عليهما صحة ميزان الذهب والفضة . فقال . هذه المعرفة لازمة منه بالضرورة ولا يمكننى أن أشك فى الأصلين ولا أن أشك فى لزوم هذه النتيجه منهما ولكن هذا لاينفعنى إلا فى هذا الموضع وعلى الوجه الذى استعمله الخليل عليه الصلاة والسلام وذلك فى نفى إلهية نمرود وإقرار الالهية لمن تفرد بإطلاع الشمس ، فكيف إذن بها سائر المعارف التى تشكل على وأحتاج إلى تمييز الحق فيها عن الباطل فقلت : من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضة وسائر الجواهر لأن الموزون عرف مقداره

---

(١) بنيت : أسست . وفى نسخة أثبت والمعنى واحد .

لا لأنه ذهب بل لأنه ذو مقدار ولذلك هذا البرهان كشف لنا عن هذه المعرفة لا لعينها بل لأنها حقيقة من الحقائق ومعنى من المعانى فنتأمل أنه لم لزمت منه هـذه النتيجة ونأخذ روحه ونجرده عن هـذا المثال الخاص حتى ننتفع به حيث أردنا وإنما لزم هذا لأن الحكم على الصفة حكم على الموصوف بالضرورة وبيانه أن إيجاز هذه الحجة إن ربى مطلع والمطلع الإله فيلزم منه إن ربى إله فالمطلع صفة الرب وقد حكمنا على المطلع الذى هو صفته بالإلهية فلزم منه الحكم على ربى بالإلهية وكذلك فى كل مقام حصلت لى معرفة بصفة الشىء وحصلت معرفة أخرى بثبوت حكم لتلك الصفة فيتولد منهما معرفة ثالثة بثبوت الحكم على الموصوف بالضرورة : فقال : هذا يكاد دركه يدق على فهمى فان تشككت فيه فماذا أصنع حتى يزول الشك . قلت : خذ عياره من الصنجة المعروفة عندك كما فعلت فى ميزان الذهب والفضة . فقال : كيف آخذ عيارها . وأين الصنجة المعروفة فى هذا الفن ؟ قلت: الصنجة المعروفة هى العلوم الأولية[1] الضرورية المستفادة إما من الحس أو التجربة أو غريزة العقل فانظر فى الأوليات هل تتصور أن يثبت حكم على صفة إلا ويتعدى إلى الموصوف فاذا مر بين يديك مثلا حيوان منتفخ البطن وهو بغل فقال قائل هذا حامل فقلت له : ألم تعلم أن البغل عقيم لايلد فقال نعم أعلم هـذا بالتجربة فقلت له : فهل تعلم أن هذا بغل فنظر فقال نعم قد عرفت ذلك بالحس والإبصار فقلت

(١) العلوم الأولية : قصد بها اليقينيات المؤلفة للقياس .

فالآن هل تعرف أنه ليس بحامل فلا يمكنه أن يشك فيه بعد معرفة الأصلين اللذين أحدهما تجريبي والآخر حسى بل يكون العلم بأنه ليس بحامل علماً ضرورياً متولداً من بين العلمين السابقين كما تولد علمك في الميزان من العلم التجريبي بأن الثقيل هاو والعلم الحسي بأن إحدى الكفتين ليست هاوية بالإضافة إلى الأخرى . فقال قد فهمت هذا فهماً واضحاً ولكن لم يظهر لي أن سبب لزومه أن الحكم على الصفة حكم على الموصوف . فقلت : تأمل فإن قولك هذا بغل وصف والصفة هل البغل وقولك كل بغل عقيم حكم على البغل الذي هو صفة بالعقم فلزم الحكم بالعقم على الحيوان الموصوف بأنه بغل وكذلك إذا ظهر لك مثلا أن كل حيوان حساس ثم ظهر لك في الدود أنه حيوان فلا يمكنك أن تشك في أنه حساس . ومنهاجه[1] أن تقول : كل دود حيوان وكل حيوان حساس . فكل دود حساس لأن قولك كل دود حيوان وصف الدود بأنه حيوان والحيوان صفته فإذا حكمت على الحيوان بأنه حساس أو جسم أو غيره دخل فيه الدود لا محالة وهذا ضروري لا يمكن الشك فيه . نعم شرط هذا[2] أن تكون الصفة مساوية للموصوف أو أعم منه حتى يكون الحكم عليه يشمل الموصوف به بالضرورة . وكذلك من سلم في النظر

---

(١) منهاجه : أي طريق القياس الاقتراني .

(٢) الإشارة عائدة إلى القياس الاقتراني لأن قوله : كل دود حيوان فالحيوان وقع هنا أعم من الدود لأنه يصدق على كل ذي روح سواء كان دوداً أو غيره .

الفقهي (١) أن كل نبيذ مسكر وكل مسكر حرام لم يمكنه أن يشك في أن كل نبيذ حرام لأن المسكر وصف النبيذ فالحكم عليه بالتحريم يتناول النبيذ إذ يدخل فيه الموصوف لا محالة وكذلك في جميع أبواب النظريات فقال: قد فهمت فهماً ضرورياً أن إيقاع الازدواج بين أصلين على هذا الوجه مولد لنتيجة ضرورية وأن برهان الخليل صلوات الله عليه برهان صحيح وميزانه ميزان صادق وتعلمت حده وحقيقته وعرفت عياره من الصنجات المعروفة عندي ولكني أشتهي أن أعرف مثالا لاستعمال هذا الميزان في مظان الأشكال في العلوم فإن هذه الأمثلة واضحة بأنفسها لا يحتاج فيها إلى ميزان وبرهان . فقلت : هيهات فبعض هذه الأمثلة ليست معلومة بأنفسها بل هي متولدة من ازدواج الأصلين إذ لا يعرف كون هذا الحيوان مثلا عقيما إلا من عرف بالحس أنه بغل وبالتجربة أن البغل لا يلد ، وإنما الواضح بنفسه هو الأول . فأما المتولد من أصلين فله أب وأم فلا يكون أولياً واضحاً بنفسه بل بغيره ولكن ذلك الغير أعني الأصلين قد يكون واضحاً في بعض الأحوال وذلك بعد التجربة وبعد الإبصار ، وكذلك كون النبيذ حراماً ليس واضحاً بنفسه بل يعرف بأصلين (أحدهما) أنه مسكر وهذا يعلم بالتجربة (والثاني) أن

---

(١) هو القياس عند الفقهاء والأصوليين لأنه أصل رابع فالأصل الأول القرآن العزيز . والثاني : الحديث الشريف . والثالث : الإجماع والرابع القياس ، وبعضهم جعله كالأصل لا أصلا ذاتياً ويعمل به عند فقدان النص من الأصول الثلاثة .

كل مسكر حرام وهذا بالخبر الوارد عن الشارع ﷺ . فهذا يعرفك كيفية الوزن بهذا الميزان وكيفية استعماله : وإن أردت مثالا أغمض من هذا فأمثلة ذلك عندنا لا تنحصر ولا تتناهى بل بهذا الميزان عرفنا أكثر الغوامض فاقنع منه بمثال واحد .

فمن الغوامض أن الإنسان ليس حادثاً بنفسه إذ له مسبب وصانع وكذلك العالم . فإذا راجعنا هذا الميزان عرفنا أن له صانعاً وأن صانعه عالم : فإنا نقول : كل جائز فله سبب ، واختصاص العالم أو الإنسان بمقداره الذى اختص به جائز . فإذن يلزم منه أن له سبباً ولا يقدر على التشكك فى هذه النتيجة من سلم الأصلين وعرفهما لكن إن شك فى الأصلين فيستنتج أيضاً معرفتهما من أصلين آخرين واضحين الى أن ينتهى الى العلوم الأولية التى لا يمكن التشكيك فيها فإن العلوم الخفية الأولية هى أصول العلوم الغامضة الجلية وهى بدورها ولكن يستثمرها منها من يحسن الاستثمار بالحراثة والإستنتاج بإيقاع الازدواج بينهما .

فإن قلت : أنا شاك فى الأصلين جميعاً فلم قلت ان كل جائز فله سبب ولم قلت ان اختصاص الإنسان بمقدار مخصوص جائز وليس بواجب : فأقول : أما قولى كل جائز له سبب فواضح اذا فهمت معنى الجائز لأنى أعنى بالجائز ما يتردد بين قسمين متساويين فإذا تساوى شيئان لم يختص أحدهما بوجود وعدم من ذاته لأن ما ثبت للشىء ثبت لمثله بالضرورة : وهذا أولى . وأما قولى اختصاص الإنسان بهذا المقدار مثلا جائز وليس واجب كقولى ان الخط الذى يكتبه الكاتب وله مقدار

مخصوص جائز إذ الخط من حيث إنه خط لايتعين له مقدار واحد بل يتصور أن يكون أطول وأقصر . فاختصاصه بمقدار عما هو أطول وأقصر سببه الفاعل لا محالة إذ نسبة المقادير إلى قبول الخط لها متساوية ، وهذا ضرورى . كذلك نسبة المقادير إلى شكل الإنسان وأطرافه متساوية فتخصيصها لا محالة بفاعل . ثم أترقى منه وأقول فاعله عالم لأن كل فعل مرتب محكم فيسند إلى علم فاعله وبنية الإنسان بنية مرتبة محكمة فلا بد أن يستند ترتيبها وتدبيرها إلى علم فاعل بها . فهنا أصلان إذا عرفتهما لم تشك فى النتيجة . أحدهما أن بنية الآدمى بنية مرتبة محكمة هذا يعرف بالمشاهدة من تناسب أعضائه واستعداد كل واحد لمقصود خاص كاليد للبطش والرجل للمشى ، ومعرفة تشريح الأعضاء يورث علماً ضرورياً به وأما افتقار المرتب المنظوم الى علم فهو واضح أيضاً فلا يشك العاقل فى أن الخط المنظوم لايصدر الا من عالم بالكتابة وان كان بواسطة القلم الذى لا يعلم ، وأن البناء الصالح لإفادة مقاصد الاكتنان كالبيت والحمام والطاحونة وغيرها لا يصدر الا من عالم بالبناء ، فإن أمكن التشكيك فى شىء من هذا فطريقه أن يترقى منه الى أوضح منه حتى يترقى الى الأوليات . وشرح ذلك ليس من غرضنا بل الغرض أن نبين أن ازدواج الأوليات على الوجه الذى أوقعه الخليل عليه السلام ميزان صادق مفيد لمعرفة حقيقية .

ولا قائل بإبطال هذا فإنه ابطال لتعليم الله تعالى أنبياءه وابطال لما أتى

الله عليه اذ قال : (وتلك حجتنا[1] آتيناها ابراهيم على قومه) والتعليم لا محالة حق ان لم يكن الرأى حقاً وفى ابطال هـــذا ابطال الرأى والتعليم جميعاً ولا قائل به أصلا .

القول فى الميزان الأوسط[2]

قال : قد فهمت الميزان الأكبر وحده وعياره ومظنته وحقيقة استعماله فاشرح لى الميزان الأوسط ما هو ومن أين حصل تعليمه ومن وضعه ومن استعمله ؟ فقلت : الميزان الأوسط أيضاً للخليل عليه السلام حيث قال : (لا أحب الآفلين) وكمال صورة هـذا الميزان أن القمر آفل والإله ليس بآفل فالقمر ليس باله . ولكن القرآن على

---

(١) تلك حجتنا : اشارة الى ما جرى بين ابراهيم وقومه واستدلال على حدوث الكواكب واقامة الحجة على قومه .

(٢) الميزان الأوسط : قصد به الشكل الثانى من القياس الاستثنائى ، لأن الحد الأوسط آفل ، وهو محمول فى الصغرى والكبرى . وبهذا استدل مشايخ الماتريدية بوجوب احالة العقل لمعرفة الله تعالى ووجوده واتصافه بما يليق لأن سيدنا ابراهيم لم يكن وقتئذ نذير له وبقوله تعالى : (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فهذه الآية تدل أيضاً على أرجحية الإيمان تلزم الخلق قبل أن يأتيهم النذير وهو الرسول لأنها لو كانت لم تلزمهم لكانوا فى أمن من نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير فلا يخوفون بنزول العذاب بهم قبل أن ينذروا فلما خوفوا به قبل الإنذار دل على أن الحجة لازمة عليهم وأن الله يعذبهم لتركهم التوحيد وان لم يرسل اليهم الرسل.

الإيجاز والاضمار مبناه لكن العلم بنفى الإلهية عن القمر لايصدر ضرورياً الا بمعرفة هذين الأصلين وهو أن القمر آفل وأن الإله ليس بآفل فإذا عرفت الأصلين صار العلم بنفى الإلهية عن القمر ضرورياً . فقال : أنا لا أشك فى أن نفى الإلهية عن القمر يتولد من هذين الأصلين أن عرفا جميعا لكنى أعرف أن القمر آفل وهذا معلوم بالحس أما الإله ليس بآفل فلا أعلمه ضرورة ولا حساً . قلت : وليس غرضى من حكاية هذا الميزان أن أعرفك أن القمر ليس بآفل بل انى أعلمك أن هذا الميزان صادق والمعرفة الحاصلة منه بهذا الطريق من الوزن ضرورية وانما حصل العلم به فى حق الخليل عليه السلام اذ كان معلوما عنده أن الإله ليس بآفل وان لم يكن ذلك العلم أولياً له بل مستفاداً من أصلين آخرين ينتجان العلم بأن الاله ليس بمتغير وكل متغير حادث والأفول هو التغير فبنى الوزن على المعلوم عنده فخذ أنت الميزان واستعمله حيث يحصل لك العلم بالأصلين . قال : فهمت بالضرورة أن هذا الميزان صادق وأن هذه المعرفة تلزم من الأصلين اذ صارا معلومين ولكن أريد أن تشرح حد هذا الميزان وحقيقته ثم تشرح لى عيارة من الصنجة المعروفة عندى ثم مثال استعماله فى مظان الغموض فإن نفى الالهية عن القمر كالواضح عندى : قلت : أما حده[1] فهو أن كل مثلين

---

(١) الحد لغة الفصل بين الشيئين والضمير عائد الى الميزان : وفى اصطلاح أهل العربية والأصوليين يستعمل بمعنى التعريف مطلقاً سواء كان حدا أو رسما والمراد منه الجامع المانع سواء كان بالذاتيات أو العرضيات . وعند المناطقة =

وصف أحدهما بوصف فسلب ذلك الوصف عن الآخر فهما متباينان أى أحدهما يسلب ذلك الوصف عن الآخر ولا يوصف به ولما كان حد الميزان الأكبر أن الحكم على الأعم حكم على الأخص ويندرج فيه لا محالة فحد هذا أن الذى ينفى عنه ما يثبت لغيره مباين لذلك الغير فالإله ينفى عنه الأفول والقمر يثبت له الأفول فهذا يوجب التباين بين الإله والقمر وهو أن لا يكون القمر إلهاً ولا الإله قمراً . وقد علم الله تعالى نبيه محمداً ﷺ الوزن بهذا الميزان فى مواضع كثيرة من القرآن اقتداء بأبيه الخليل صلوات الله عليهما فاكتفى بالتنبيه على موضعين واطلب الباقى من آيات القرآن أحدهما : قوله تعالى لنبيه (قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) وذلك أنهم أدعوا أنهم أبناء الله فعلمه الله تعالى كيفية اظهار خطابهم بالقسطاس المستقيم فقال : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) وكمال صورة هذا الميزان أن البنين لا يعذبون وأنتم معذبون فإذاً لستم أبناء فهنا أصلان أما أن البنين لا يعذبون فيعرف بالتجربة وأما أنتم معذبون فيعرف بالمشاهدة ويلزم منهما ضرورة نفى البنوة . الموضع الثانى : قوله تعالى (قل يأأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه

= قول دال على ماهية الشيء . وينقسم الى قسمين تام وناقص . فالتام هو الذى يتركب من جنس الشيء وفصله القريبين كالحيوان الناطق فى تعريف الانسان . والحد الناقص هو الذى يتركب من جنس الشيء البعيد وفصله القريب كالجسم الناطق فى تعريف الانسان .

أبداً بما قدمت أيديهم) وذلك أنهم ادعوا الولاية وكان من المعـــلوم أن الولى يتمنى لقاء وليه وكان من المعلوم أنهم لا يتمنون الموت الذى هو سبب اللقاء فلزم ضرورة أنهم ليسوا أولياء لله . وكمال صورة هذا الميزان أن يقال : كل ولى يتمنى لقاء وليه واليهودى ليس يتمنى لقاء الله فلزم منه أنه ليس بولى لله . وحده أن التمنى يوصف به الولى وينفى عن اليهود فيكون الولى واليهودى متباينين لسلب أحدهما عن الآخر فلا يكون الولى يهودياً ولا اليهودى ولياً . وأما عياره من الصنجة المعلومة فما عندى أنك تحتاج إليه مع وضوحه ولـكن إن أردت استظهاراً فانظر أنك إذا عرفت أن الحجر جماد ثم عرفت أن الإنسان ليس بجماد كيف يلزمك منه أن تعرف أن الإنسان ليس بحجر لأن الجمادية ثابت للحجر وتنفى عن الإنسان فلا جرم يكون الإنسان مسلوباً عن الحجر والحجر مسلوباً عن الإنسان فلا الإنسان حجراً ولا الحجر إنساناً . وأما مظنة استعماله فى مواضع الغموض فـكثير وأحـــد شطرى المعرفة معرفة التقديس وهو ما يتقدس عنه الرب تعالى علواً كبيراً وجميع معارفه توزن بهـذا الميزان إذ الخليل عليه السلام استعمل هـذا الميزان فى التقديس وعلمنا كيفية الوزن به إذ عرف بهذا الميزان نفى الجسمية عن الله تعالى . وكذلك تقول إن الإله ليس بجوهر متحيز لأن الإله ليس بمعلول وكل متحيز فاختصاصه بحيزه الذى يختص به معلول فيلزم منه أنه ليس بجوهر وتقول ليس بعرض لأن العرض ليس بحى عالم والإله حى عالم فليس بعرض ، وكذلك سائر أبواب التقديس تتولد معرفتها

أيضاً من ازدواج أصلين على هذا الوجه (أحدهما) أصل سالب مضمونه النفي (والثاني) أصل موجب مضمونه الإثبات وتتولد منهما معرفة النفي والتقديس .

القول في الميزان الأصغر[1]

قال : قد فهمت هذا أيضاً فهماً ضرورياً فاشرح لي الميزان الأصغر وحده وعياره ومظنة استعماله من الغوامض . قلت : الميزان الأصغر تعلمناه من الله تعالى حيث علمه محمداً صلى الله عليه وسلم في القرآن وذلك في قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) ووجه الوزن بهذا الميزان أن تقول قولهم بنفي إنزال الوحي على البشر قول باطل الازدواج المنتج بين الأصلين (أحدهما) أن موسى عليه السلام بشر (والثاني) أن موسى أنزل عليه الكتاب فيلزم منه بالضرورة قضية خاصة وهو أن بعض البشر أنزل عليه الكتاب وتبطل به الدعوى العامة بأنه لاينزل كتاب على بشر أصلا — أما الأصل الأول وهو قولنا موسى بشر فمعلوم بالحس ، وأما الثاني وهو أن موسى منزل عليه الكتاب فكان معلوماً باعترافهم إذ كانوا يخفون بعضه

---

(١) الميزان الأصغر : كناية عن الشكل الثالث من القياس الاستثنائي لأن حد أمثلته موضوع في الصغرى والكبرى كما سيجيء .

ويظهرون بعضه كما قال تعالى (يبدونها[1] ويخفون كثيراً) وإنما ذكر هذا في معرض المجادلة بالأحسن ، ومن خاصية المجادلة أنه يكفي فيه أن يكون الأصلان مسلمين من الخصم مشهورين عنده وان أمكن الشك فيه[2] لغيره فإن النتيجة تلزمه اذ كان هو معترفا به وأكثر أدلة القرآن تجرى على هذا الوجه فإن صادفت من نفسك إمكان الشك في بعض أصولها ومقدماتها فاعلم أن المقصود بها محاجة من لم يشك فيه . وأما أنت فالمقصود في حقك أن تتعلم منه كيفية الوزن في سائر المواضع ، وأما عيار هذا الميزان أن من يقول لا يتصور أن يمشي الحيوان بغير رجل فيعلم منك اذا قلت الحية حيوان والحية تمشي بغير رجل فيلزم منه أن بعض الحيوان يمشي بغير رجل وأن قول من يقول لا يمشي الحيوان الا برجل قول باطل منقوض ، وأما موضع استعماله من

---

(١) يبدونها : يظهرونها ، والضمير عائد الى قراطيس التوراة ، وأول الآية : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) .

(٢) فيه : الضمير عائد الى الشك أى فيعمل به وذلك لغير الخصم المسلم وأما له فتلزمه النتيجة ، لان التصديق وما في معناه من المركبات الناقصة اذا قاله أحد يقال له الدعوى أو المدعى وقائله المعلل ومن حقه التعليل عليه فإن لم يكن مقرونا بدليل ولم يكن الدليل بديهياً جليا فلا يصح منعه ويسمى منه مكابرة وان كان المدعى مقرونا بدليل فللخصم حينئذ المنع والمعارضة والنقض وهنا ليس كذلك ، لان الاصلين مسلمان لدى الخصم فلزمته النتيجة ضرورة.

الغوامض فكثير فإن بعض الناس مثلا يقول كل كذب فهو قبيح لعينه فنقول من رأى نبياً من الأنبياء أو ولياً من الأولياء قد اختفى من ظالم فسأله الظالم عن موضعه فأخفاه فقوله هل هو كذب ، قال : نعم قلنا فهل هو قبيح . قال : لا بل القبيح الصدق المفضى إلى هلاكه فنقول له : انظر إلى الميزان فإنا نقول قوله فى إخفاء محله كذب فهو أصل معلوم وهذا القول ليس بقبيح وهو الأصل الثانى فيلزم منه أن كل كذب ليس بقبيح فتأمل الآن هل يتصور الشك فى هذه النتيجة بعد الاعتراف بالأصلين وهل هذا أوضح مما ذكرته من المقدمة التجريبية والحسية بعد الاعتراف بالأصلين وهل هذا أوضح مما ذكرته من المقدمة التجريبية والحسية فى معرفة ميزان التقديس ، وأما حد هذا الميزان فهو أن كل وصفين اجتمعا على شىء واحد فبعض آحاد الوصفين لا بد أن يوصف بالآخر بالضرورة ولا يلزم أن يوصف بأنه كله لزوماً ضرورياً بل قد يكون فى بعض الأحوال وقد لا يكون فلا يوثق. ألا ترى أن الإنسان يجتمع عليه الوصف بأنه حيوان وأنه جسم فيلزم منه بالضرورة أن بعض الجسم حيوان ولا يلزم منه[1] أن كل جسم حيوان ولا يغرنك إمكان وصف كل حيوان بأنه جسم فإن وصف كل وصف

---

(١) منه : أى من وصف الإنسان بأنه جسم أن يكون جسما لأن الجسم نوع متوسط بالنسبة للجوهر والجسم المطلق وهو أعم من الإنسان ولا يلزم من وجود الأخص وجود الأعم ولا عكس فالجسم يجتمع بالإنسان عند حده الناقص وينفرد عنه بالجمادات .

بالآخر إذا لم يكن ضرورياً فى كل حال لم تكن المعرفة الحاصلة به ضرورية ، ثم قال الرفيق قد فهمت هـذه الموازين الثلاثة ولكن لم خصصت الأول باسم الأكبر والثـانى بالأوسط والثالث بالأصغر .

قلت : لأن الأكبر هو الذى يتسع لأشياء كثيرة ، والأصغر خلافه ، والأوسط بينهما والميزان الأول أوسع الموازين إذ يمكن أن تستفاد منه المعرفة بالإثبات العام والإثبات الخاص والنفى العام والنفى الخاص فقد أمكن أن يوزن به أربعة أجناس من المعارف ، وأما الثانى فلا يمكن أن يوزن به إلا النفى ولكن يوزن به النفى العـــام والخاص جميعاً .وأما الثالث فلا يوزن به إلا الخاص كما ذكرت لك أنه يلزم منه أن بعض أحـد الوصفين يوصف به الآخر لاجتماعهما على شىء واحد وما لا يتسع إلا للحكم الواحد الجزئى فهو أصغر لا محالة . نعم وزن الحكم العام به من موازين الشيطان وقد وزن به أهل التعليم بعض معارفهم وألقاه فى أمنية الخليل صلوات الله عليه وسلامه فى قوله : (هذا ربى هذا أكبر) . وسأتلو عليك قصته بعد هذا إن شاء الله .

القول فى ميزان التلازم[1]

قال : فاشرح لى ميزان التلازم فقد فهمت الأقسام الثلاثة من موازين

---

(١) التلازم : هو أن يلزم من وجود الشىء وجود شىء آخر وهذه قاعدة أغلبية فى باب التفاعل .

التعادل[١] قلت : هذا الميزان مستفاد من قوله تعالى (لو كان فيهما[٢] آلهة إلا الله لفسدتا)[٣] ومن قوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً

---

(١) موازين : الصواب ميزان كما فى بعض النسخ ولكن جمعه باعتبار قسميه .

(٢) فيهما : الضمير عائد إلى السماء والأرض .

(٣) لفسدتا : الفساد ضد الإصلاح والمراد لخربتا وهلك من فيهما لوجود برهان التمانع ، وقوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا قياس استثنائى متصل لأن مقدمته الاولى شرطية متصلة وقد استثنى فيها نفى التالى فنتج عن ذلك نفى المقدم . هذا من جهة فن الميزان . ومن جهة علم الكلام . فقد قال العلامة علاء الدين الخازن نقلا عن الإمام فخر الدين الرازى ما نصه : قال المتكلمون القول بوجوب إلهين يفضى إلى المحال فوجب ان يكون القول بوجوب إلهين محالا . وإنما قلنا إنه يفضى إلى المحال لانا لو فرضنا وجود إلهين فلابد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا ان احدهما اراد تحريكه واراد تسكينه . فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك أيضا محال لوجهين : أحدهما أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لابد وأن يستويا فى القدرة وإذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون

لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا) . ومن قوله تعالى : (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) وتحقيق صورة هـــذا الميزان أن تقول : لو كان للعالم

— قادراً والذى لم يتم مراده يكون عاجزاً والعجز نقص وهو على الإله محال ولو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لأن إسناد الفعل إلى الفاعل إنما كان لإمكانه فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فليستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعاً فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه إليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسألة التوحيد فنقول القول بوجود إلهين يفضى إلى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعاً أو نقول لو قدرنا إلهين فإما أن يتفقا أو يختلفا فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وإن اختلفا فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثانى والكل محال فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات واعلم أنك إذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى . وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن . واعلم أن كل من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والأرض آلهة يقول بإلهيتها عبدة الأصنام لزم فساد العالم لأنه جمادات لاتقدر على تدبير العالم فلزم إفساد العالم قالوا وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم فى قوله : أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به جل جلاله . وقوله : (لو كان آلهة — الخ) هـذا أيضاً قياس استثنائى متصل وتقديره كما تقدم .ا

إلهاين لفسد ، فهـذا أصل . ومعلوم أنه لم يفسد ، وهذا أصل آخر ، فيلزم عنهما نتيجة ضرورية وهى نفى أحد الإلهين ولو كان مع ذى العرش آلهة لابتغوا إلى ذى العـرش سبيلا ، ومعلوم أنهم لم يبتغوا فيلزم نفى آلهة سوى ذى العرش ، وأما عيار هـذا الميزان بالمنهج المعلومة قولك . إن كانت الشمس[1] ، طالعة فالكواكب خفية . وهـذا يعلم بالتجربة ثم تقول ومعلوم أن الشمس طالعة وهذا يعلم بالحس فيلزم منه أن الكواكب خفيه وتقول إن لم يأكل فلان[2] فهو شبعان وهو يعلم بالتجربه ثم تقول ومعلوم أنه اكل وهذا يعلم بالحس فيلزم من الاصل التجريبى والاصل الحسى بالضروره أنه غير شبعان ، وأما موضع استعماله فى الغوامض فكثير حتى يقول الفقيه إن كان بيع الغائب صحيحا فيلزم بتصريح الالزام ومعلوم أنه لا يلزم بتصريح الالزام فيلزم منه أن ليس بصحيح ويعلم الاصل الاول بالاستقراء الشرعى المفيد للظن وإن لم يفد العلم ، والثانى بتسليم الخصم ومساعدته وتقول فى النظريات[3] .

---

(١) إن — الخ هـذا قياس استثنائى لتركبه من مقدمتين ، الأولى : شرطيه لاشتمالها على أداة الشرط وهى أن — الاخرى : استثنائية لاشتمالها على أداة الاستثناء وهى لكن ، وهنا أتى المؤلف بما يقوم مقامها وهو قوله ومعلوم أن الشمس طالعه .

(٢) إن لم يأكل فلان الخ هذا أيضا قياس استثنائى ولكن فى المثال السابق نتج عن إحدى طرفى الشرطية وهنا نقيضها .

(٣) اى فى البراهين النظرية وهى القضايا التى يحكم فيها العقل بواسطة النظر والاستدلال ولا تكون نتيجتها إلا يقينية لأنها ناتجة من وجه قطعى .

إن كان صنعة العالم وتركيب الآدمى مرتباً عجيباً محكماً فصانعه عالم وهذا فى العقل أولى ومعلوم أنه عجيب مرتب وهـذا مدرك بالعيان فيلزم منه أن صانعه عالم ثم نترقى . فنقول : إن كان صانعه عالما فهو حى ومعلوم بالميزان الاول أنه عالم فيلزم منه أنه حى ثم نقول إن كان حياً عالما فهو قائم بنفسه وليس بعرض ومعلوم الميزان[1] السابقين الاولين أنه حى عالم فيلزم منه أنه قائم بنفسه وكذلك[2] نعرج من صفه تركيب الآدمى إلى صفه صانعه وهو العلم ثم تعرج من العلم إلى الحياة ثم منها إلى الذات وهذا هو المعراج الروحانى وهذه الموازين سلالم العروج إلى السماء ثم إلى خالق السماء وهـذه الاصول درجات السلالم — واما المعراج الجسمانى فلا تفى به كل قوة بل يختص ذلك بقوة النبوة — وأما حد هذا الميزان فإن كل ما هو لازم للشىء فهو تابع له فى كل حال فنفى اللازم يوجب بالضرورة نفى الملزوم ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم ، أما نفى الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما بل هما من موازين الشيطان وقـد يزن به بعض أهل التعليم معرفته ، أما ترى أن صحة الصلاة يلزمها لا محالة كون المصلى متطهراً فلا جرم يصح أن تقول إن كانت صلاة زيد صحيحة

---

(١) هما الميزان الأول الذى نتج منـه أن صانعه عالم ، والثانى الذى نتج منه أنه حى .

(٢) أى اجعـــل النتيجة مقدمة لقياس آخر لتتوصل بها لشىء أقرب من الأول .

فهو متطهر ومعلوم أنه غير متطهر وهو نفى اللازم فلزم منه أن صلاته غير صحيحة وهو نفى الملزوم وكذلك إن قلت ومعلوم أن صلاته صحيحة وهذا وجود الملزوم فيلزم منه أنه متطهر وهو وجود اللازم ، أما إن قلت ومعلوم أنه متطهر فيلزم منه أن صلاته صحيحة فهذا خطأ لأنه ربما بطلت صلاته بعلة أخرى فهذا وجود اللازم ولم يدل على وجود الملزوم وكذلك إن قلت ومعلوم أن صلاته ليست بصحيحة فهو إذا كان غير متطهر وهذا خطأ غير لازم لأنه يجوز أن يكون عدم صحة الصلاة لفقدان شرط آخر سوى الطهارة — فهذا نفى الملزوم ولم يدل على نفى اللازم .

القول فى ميزان التعاند

ثم قال اشرح لى ميزان التعاند واذكر لى من القرآن موضعه وعياره ومحل استعماله . قلت : أما موضعه من القرآن فقوله تعالى فى تعليم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) فإنه لم يذكر قوله إنا أو إياكم فى معرض التسوية والتشكيك بل فيه إضمار أصل آخر وهو لسنا على ضلال فى قولنا : إن الله يرزقكم من السماء والأرض فإنه الذى يرزق من السماء بإنزال الماء ومن الأرض بإنبات النبات فإذا أنتم ضالون بإنكار ذلك ، وكمال صورة هذا الميزان إنا أو إياكم لعلى ضلال مبين ، وهذا أصل ، ثم نقول : ومعلوم أنا لسنا فى ضلال ، وهذا أصل آخر ، فيلزم من ازدواجهما نتيجة ضرورية وهو أنكم فى ضلال . وأما عياره

من الصنجات المعروفة فهو أن من دخـــل داراً ليس فيها إلا بيتان ثم دخلنا أحدهما فلم نره فيه فنعلم علماً ضرورياً أنه فى البيت الثانى ، وهـــذا الازدواج من أصلين أحدهما قوله إنه فى أحد البيتين قطعاً والثانى أنه ليس فى هـذا البيت أصلا فيلزم منهما أنه فى البيت الثانى فاذاً نعلم أنه فى البيت الثانى فاذا نعلم كونه فى البيت الثانى تارة بأن نراه فيه وتارة بأن نرى البيت الثانى خالياً عنه فإن علمناه برؤيتنا إياه فيه كان علماً عيانياً وإن عرفناه بأن لم نره فى البيت الثانى كان هذا علماً ميزانياً ويكون هذا العلم الميزانى قطعياً كالعيان ، وأما حد هذا الميزان فهو أن كل ما انحصر فى قسمين فيلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة فالوزن بالقسمة المنتشرة وزن الشيطان وبه وزن بعض أهل التعليم كلامهم فى مواضع كثيرة ذكرناها فى القواصم وفى جواب مفصـــل الخلاف والكتاب المستظهرى وغـــيرهما من الكتب المستعملة ، وأما موضع استعمال هـذا من الغوامض فلا ينحصر ولعل أكثر النظريات تدور عليه فإن من أنكر موجوداً قديماً فنقول له الموجودات إما أن تكون كلها حادثة أو بعضها حادث وبعضها قديم وهذا حاصر لأنه بين النفى والاثبات دائر ثم نقول ومعلوم أن كلها ليست بحادثة فيلزم أن فيها قديماً فإن قيل فلم قلت إن كلها ليست حادثة فنقول لأن كلها لو كانت حادثة لكان حدوثها بأنفسها من غير سبب فبطل أن تكون كلها حادثة فثبت أن فيها موجوداً قديماً ، ونظائر استعمال هـذا الميزان لا تنحصر فقال قد فهمت

بالحقيقة صدق هذه الموازين الخمس ولكن أشتهى أن أعرف معنى ألقابها ولم خصصت الاول بأنه ميزان التعادل والثانى بالتلازم والثالث بالتعاند قلت : سميت الأول ميزان التعادل لأن فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متحاذيتان ، وسميت الثانى ميزان التلازم لأن أحد الأصلين تشتمل على جزئين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فإن قوله لفسدتا لازم وملزوم قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله ولزمت النتيجة من نفى اللازم وسميت الثالث ميزان التعاند لانه رجع إلى حصر قسمين بين النفى والاثبات يلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الأخر فبين القسمين تعاند وتضاد فقال : هذه الأسامى أنت ابتدعتها وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها أم سبقت إليها قلت : أما هذه الاسامى فإنى ابتدعتها ، وأما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن وما عندى أنى سبقت إلى استخراجها من القرآن لكن اصل الموازين قد سبقت إلى استخراجها ولها عند مستخرجها من المتأخرين اسماء اخر سوى ما ذكرته ، وعند بعض الامم السابقة على بعثة محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم أسامى أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ولكن بعثنى على إبدال كسوتها بأسامى اخر غير ماسموها به ما عرفت من ضعف قريحتك وطاعة نفسك إلى الاوهام فإنى رايتك من الاعتزاز بالظواهر بحيث لو سقيت عسلا أحمر فى قارورة حجام لم تطق تناوله لنفور طبعك عن المحجمة وضعف عقلك عن أن يعرفك أن العسل طاهر فى أى زجاجة

كان بل ترى التركى يلبس المرقعة والدراعة فتحكم عليه بأنه صوفى أو فقيه ولو لبس الصوفى القباء والقلنسوة حكم عليه وهمك بأنه تركى فأبداً يتحرك وهمك إلى ملاحظة غلاف الأشياء دون اللباب وكذلك لا تنظر إلى القول من نفس القول وذاته بل من حسن صنعته أو حسن ظنك بقائله فإذا كانت عبارته مستكرهة عندك أو قائله قبيح الحال فى اعتقادك رددت القول وإن كان فى نفسه حسنا وحقا ولو قيل لك قل لا إله إلا الله عيسى رسول الله نفر عن ذلك طبعك وقلت هذا قول النصارى فكيف أقوله ولم يكن لك من العقل ما تعرف به أن هذا القول فى نفسه حق وأن النصرانى مامقت هذه الكلمة ولا لسائر الكلمات بل لكلمتين فقط إحداهما قوله: الله ثالث ثلاثة والثانية قوله: محمد ليس برسول الله وسائر أقواله وراء ذلك حق فلما رأيتك ورأيت رفقاءك من أهل التعليم ضعفاء العقول لا يخدعهم إلا الظواهر نزلت إلى حدك فسقيتك الدواء فى كوز الماء وسقتك به إلى الشفاء وتلطفت بك تلطف الطبيب بمريضه ولو ذكرت لك أنه دواء وعرضته فى قدح الدواء لكان يشمئز عن قبوله طبعك ولو قبلته لكنت تتجرعه ولا تكاد تسيغه فهذا غرضى فى إبدال تلك الأسامى وإبداع هذه يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله وينكره من ينكره: فقال: لقد فهمت هذا كله ولكن أين ما كنت وعدت به من أن هذا الميزان له كفتان وعمود واحد تتعلق به الكفتان جميعا ولست أرى فى هذا الميزان الكفة والعمود وأين ما ذكرته من الموازين التى هى أشبه بالقبان قلت: هذه المعارف الست قد استمدتها من أصلين فلكل أصل

كفة والجزء المشترك بين الأصلين الداخل فيهما عمود وأضرب لك مثالا من الفقهيات فلعله أقرب إلى فهمك فأقول : قولنا : كل مسكر حرام كفة وقولنا : كل نبيذ مسكر كفة أخرى والنتيجة أن كل نبيذ حرام فهنا فى الأصلين ثلاثة أمور فقط النبيذ والمسكر والحرام : أما النبيذ فانه يوجد فى أحد الأصلين فقط فهو كفة ، وأما الحرام فيوجد فى الاصل الثانى فقط فهو الكفة الثانية ، وأما المسكر فمذكور فى الأصلين جميعاً وهو مكرر فيهما مشترك بينهما فهو العمود والكفتان متعلقتان به إذ يتعلق به أحدهما ويتعلق الموصوف بالصفة وهو قولك كل نبيذ مسكر فإن النبيذ موصوف بالمسكر والاخرى متعلقة به لتعلق الصفة بالموصوف وهو قولك : وكل مسكر حرام فتأمل ذلك حتى تعرف فان فساد هذا الميزان تارة يكون من الكفة وتارة يكون من العمود وتارة يكون من تعلق الكفة بالعمود على ما أنبهك على رمز يسير منه فى ميزان الشيطان ، وأما المشبه بالقبان فهو ميزان التلازم إذ أحد طرفيه أطول من الآخر كثيرا فإنك تقول لو كان بيع الغائب صحيحاً للزم بصريح الإلزام وهذا أصل طويل مشتمل على جزئين لازم وملزوم والثانى وهو قولك وليس يلزم بصريح الالزام وهذا أصل آخر أقصر منه فكان أشبه بالرمانة القصيرة المقابلة لكفة القبان — وأما ميزان التعادل فتتعادل فيه كفتان ليست إحداهما أطول من الأخرى بل كل واحدة منهما تشتمل على صفة وموصوف فقط فافهم هذا مع ماعرفتك من أن الميزان الروحانى لايكون كالميزان الجسمانى بل يناسبه مناسبة ما ولذلك يمكن تشبيهه

يتولد النتيجة من ازدواج الاصلين إذ يجب أن يدخل شيء من أحد الاصلين فى الآخر وهو المسكر الموجود فى الاصلين حتى تتولد النتيجة فإن لم يدخل جزء من أحد الاصلين فى الآخر لم تتولد نتيجة كما لم تتولد من قولك كل مسكر حرام وكل مغصوب مضمون نتيجة أصلا وهما أصلان لكن لم يجر بينهما نكاح وازدواج إذ ليس يدخل جزء من أحدهما فى الاخر وإنما النتيجة تتولد من الجزء المشترك الداخل من أحدهما فى الآخر وهو الذى سميناه عمود الميزان ولو فتح لك باب الموازنه بين المحسوس والمعقول لانفتح لك باب عظيم فى معرفه الموازنة بين عالم الملك والشهادة وبين عالم الغيب والملكوت وتحته أسرار عظيمه، من لم يطلع عليها حرم الاقتباس من انوار القرآن والتعلم منه ولم يحط من علمه إلا بالقشور فكما ان فى القرآن موازين كل العلوم فكذلك فيه مفاتيح كل العلوم كما اشرت إليه فى كتاب جواهر[1] القرآن وطلبه منه وليست الموازنه بين عالم الملك والشهادة وعالم الغيب والملكوت إلا بما يتجلى بعضه فى المنام من الحقائق المعنوية فى الامثلة الخاليه لأن الرؤيا جزء من النبوة وفى عالم النبوة يتجلى تمام الملك والملكوت، ومثاله من النوم رجل[2] راى فى منامه كان فى يده خاتما يختم به افواه الرجال

---

(١) لم يعقد المؤلف لذلك بابا بل أشار إليه فى الفصل الخامس من الكتاب المذكور عند قوله فى كيفية انشعاب علم الاولين منه والآخرين .

(٢) ذكر المؤلف ذلك فى جواهر القرآن و بعده ورأى آخر كأن يصب الزيت فى الزيتون فقال له إن كان تحتك جارية فهى أمك قد سبيت وبيعت =

وفروج النساء فقص رؤياه على ابن سيرين ، فقال : إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل الصباح فقال هو كذلك فانظر الآن لم تجلى له حاله من عالم الغيب في هذا المثال واطلب الموازنة بين هذا المثال والأذان قبل الصبح في رمضان وربما يرى هذا المؤذن نفسه يوم القيامة وفي يده خاتم من نار ويقال له هذا هو الخاتم الذي كنت تختم به أفواه الرجال وفروج النساء فيقول والله مافعلت هذا فيقال نعم كنت تفعله ولكن تجهله لأن هذا روح فعلك ولا تتجلى حقائق الأشياء وأرواحها إلا في عالم الأرواح ويكون الروح في غطاء من الصور في عالم التلبيس عالم الحس والخيال ، الآن قد كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وكذلك يفتضح كل من ترك حداً من حدود الشرع وإن أردت له حقيقة فاطلبه من باب حقيقة الموت في الإحياء أو من كتاب جواهر القرآن[1]

= واشتريتها أنت ولا تعرف فكان كذلك فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركا للأذان قبل الصبح في روح الخاتم وهو المنع وإن كان مخالفا في صورته وقس على ماذكرته مالم أذكره .

(١) أشار إلى ذلك في الفصل العاشر من القسم الرابع من الكتاب المذكور وأول مايتعلق بذلك قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) وقوله : (تلك الدار الآخرة الخ) وقوله (من جاء بالحسنة الخ) وقوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء الخ) وقوله (ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة الخ) ، قوله (فأقم وجهك للدين حنيفا الخ) وقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة الخ) وهكذا أورد من الآيات إلى آخر الفصل العاشر من الكتاب المذكور فليرجع إليه من أراد .

فترى فيه العجائب وأطـــل التأمل فيـــه فعساك تنفتح لك باب رؤيته إلى عالم الملكوت تسترق منهـــا السمع فانى ما أراك ينفتح لك بابها وأنت إنما تنتظر معرفة الحقائق من معلم غائب لاتراه ولو رأيتـــه لوجدته أضعف منك فى المعرفة كثيراً فخذها ممن سافر وتعرف وبحث فعلى الخبير سقطت فيـــه . فقال : هـذا الآن حديث آخر يطول بينى وبينك للجاج فيه فإن هـــذا المعلم الغائب وإن كنت لم أر منظره فقد سمعت خبره كالليث إن لم أره فقد رأيت أثره ولقد رأيت والدتى إلى أن ماتت ومولانا[1] صاحب قلعة الموت يثنيان عليه ثناء بالغاً حتى قالا إنه المطلع على كل مايجرى فى العالم ولو على ألف فرسخ أفأكذب والدتى وهى العجوز العفيفة السيرة أو مولانا وهو الإمام الحسن السيرة والسريرة كلا بل هما شاهدان صادقان كيف وقد طابقهما على ذلك جميع رفقائى من أهل دامغان[2]

---

(١) هو الحسن بن الصباح مقدم الاسماعلية صاحب قلعة الموت وهو الذى أظهر بدعة الطائفة الاسماعيلية قال الشهرستانى واستظهر المذكور بالرجال وتحصن بالقلاع وكان بدء صعوده على قلعة فى شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وهو الذى دعا الناس إلى تعيين إمام صادق ومنع العوام من الخوض فى العلوم ومنع الخواص عن مطالعة الكتب القديمة توفى سنة ثمان عشر وخمسمائة كذا فى تاريخ ابن الوردى .

(٢) دامغان : بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور وهو قصبة قومس قال مسعر ابن مهلهل الدامغان مدينة كثيرة الفواكه وفاكهتها نهاية والرياح لا تنقطع بها ليلا ولا نهارا ، وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة فى =

وأصبهان[١] ولهم الأمر المطاع وفى حكمها سكان القلاع أفترى أنهم منخدعون وهم الأذكياء أو متنمسون وهم الأتقياء هيهات هيهات دع عنك الغيبة فإن مولانا يطلع على ما يجرى بيننا من غير ريبة إذ لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فأخشى أن أتعرض

= الجبل إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسما لمائة وعشرين رستاقا لا يزيد قسم على صاحبه ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة وهو مستظرف جدا ما رأيت فى سائر البلدان مثله ولا مشاهدات احسن منه وهناك قرية تعرف بقرية الجالين فيها عين تنبع دما لا يشك فيه لأنه جامع لأوصاف الدم كلها إذا ألقى فيه لزئبق صار لوقته حجرا يابسا صلبا متفننا وتعرف هذه القرية أيضا بفنجان وبالدامغان وفيها معادن الذهب وبينها وبين بسطام مرحلتان وبينها وبين كردكوه قلعه الملاحدة يوم واحد والواقف بالدامغان يراها فى وسط الجبال وقد نسبوا إلى الدامغان جماعة وافرة من أهل العلم منهم : إبراهيم بن إسحاق الزراد الدامغانى وقاضى القضاة أبو عبدالله محمد بن على بن محمد الدامغانى وغيرهما . انتهى باختصار من معجم البلدان .

(١) أصبهان : مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون فى وصف عظمها حتى يتجاوز واحد الاقتصاد إلى غاية الاسراف وهى اسم للاقليم بأسره وهى صحيحة الهواء نفيسة الجو خالية من جميع الهوام تبلى الموتى فى تربتها ولا تتغير فيها رائحة اللحم ولو بقيت فى القدر بعد أن تطبخ شهرا ، وتربتها أصح تراب الأرض ويبقى التفاح فيها غضا سبع سنين ولا تسوس بها الحنطة ومساحتها ثمانون فرسخا فى مثلها وهى ستة عشر رستاقا كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة سوى المحدثة . انتهى بغاية الاختصار من معجم البلدان . لياقوت الحموى .

لقته بمجرد السماع والإصغاء فاطوطومار[1] الهذيان وارجع إلى حديث الميزان واشرح فى ميزان الشيطان وكيفية وزن أهل التعليم به .

القول فى موازين الشيطان وكيفيه وزن أهل التعليم بها

فقلت اسمع الآن يامسكين شرح ميزان رفقائك فإنك بعــد فى غلواتك واعلم أن كل ميزان ذكرته من موازين القرآن فللشيطان فى جانبه ميزان ملصق به يمثله بالميزان الحق ليوزن به فيغلط لكن الشيطان إنما يدخل من موقع الثلم فمن سد الثلم وأحكمها أمن الشيطان . ومواقع ثلمه عشرة قد جمعتها وشرحتها فى كتاب النظر وكتاب معيــار العلم إلى غير ذلك من الدقائق فى شروط الميزان لم أذكرها الآن لقصور فهمك عن إدراكها وإن أردت معاند حلها ألفيتها فى كتاب المحك وإن أردت شرح تفاصيلها وجدتها فى كتاب المعيار لكن أقــدم الآن أنموذجا واحدا وذلك هو الذى ألقاه الشيطان فى خاطر ابراهيم الخليل عليه السلام إذ قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) وإنما ذلك فى مبادرته إلى الشمس . وقوله . هذا ربى هذا أكبر لأجل أنه أكبر أراد أن يدعه به ، وكيفية الوزن به أن الإله هــو الأكبر فهذا أصل معلوم الاتفاق والشمس هى أكبر من الكواكب

---

(١) الطومار : الصحيفة قيل هو دخيل وجعله ابن سيده عربيا محضا لأن سيبويه قد أعتد به فى الأبنية وجعله ملحقا بفسطاط (لسان العرب) .

وهذا أصل آخر معـــلوم بالحس فيلزم منه أن الشمس إله وهى النتيجة وهذا ميزان ألصقه الشيطان بالميزان الأصغر من موازين التعـــادل لأن الأكبر وصف وجد للاله ووجد للشمس فيوهم أن أحدهما يوصف بالاخر وهو عكس الميزان الأصغر وحد ذلك الميزان أن يوجد شيئان لشيء واحد لا أن يوجد شيء واحد لشيئين فإنه إن وحد شيئان لشيء واحد وصف بعض أحدهما بالآخر كما سبق ذكره . أما إذا وجد شيء واحد لشيئين فلا يوصف أحـــد الشيئين بالآخر فانظر كيف يلبس الشيطان بالعكس . وعيار هـــذا الميزان الباطل من الصنجة الظاهرة البطلان اللون فإنه يوجد للسواد والبياض جميعاً ثم لايلزم أن يوصف البياض بالسواد أو السواد بالبياض بل لو قال قائل البياض لون والسواد لون فيلزم منه أن السواد بياض كان خطأ باطلا فكذلك قوله الإله أكبر والشمس أكبر فالشمس إله فهذا خطأ إذ يجوز أن يوصف المتضادان بوصف واحـــد فاتصاف شيئين بوصف واحد لايوجب بين الشيئين اتصالا . أما اتصاف شيء واحد بشيئين فيوجب بين الوصفين اتصالا وكل من فهمه أدرك التفرقة بين اتصاف شيء واحد بشيئين وبين اتصاف شيئين بشيء واحـــد فقال : قد اتضح لى بطلان هذا لكن متى وزن أهل التعلم كلامهم به ؟ قلت : وزنوا به كلاما كثيراً أشح على أوقاتى أن أضيعها بحكايته لكن أريك أنموذجاً واحداً فلقد سمعت كثيراً من قولهم إن الحق مع الوحدة والباطل مع الكثرة ومذهب الرأى يفضى إلى الكثرة ومذهب التعليم يفضى إلى الوحدة فيلزم

أن يكون الحق فى مذهب التعلم قال : نعم سمعت هذا كثيراً واعتقدت
هذا برهاناً وأعرفه برهاناً قاطعاً لا أشك فيه فقلت : هذا ميزان الشيطان
فانظر كيف انتكس رفقاؤك واستعملوا قياس الشيطان وميزانه فى
إبطال ميزان الخليل صلوات الله عليه وسلامه وسائر الموازين قال : وما
وجه تخريجه عليه ؟ فقلت : الشيطان إنما يلبس فى الموازين بتكثير الكلام
فيه وتشويشه حتى لا يعلم منه موضع التلبيس وهذا كلام كثير حاصله
يرجع إلى أن الحق يوصف بالوحدة فهذا أصل وأن مذهب التعليم
يوصف بالوحدة فهذا أصل آخر فلزم منه أن مذهب التعلم يوصف
بالوحدة وصف واحد بالحق لأن الوحدة فى شىء واحد فاتصف به
شيئان فيجب اتصاف أحد الشيئين بالآخر كقول القائل اللون وصف
واحد اتصف به البياض والسواد جميعاً فيلزم اتصاف البياض بالسواد
وكقول الشيطان الأكبر وصف واحد يتصف به الإله والشمس فيلزم
منه أن تتصف الشمس بالإله فلا فرق بين هذه الموازين الثلاثة أعنى
وجود اللون للسواد والبياض ووجود الأكبر للإله والشمس
ووجود الوحدة للتعليم والحق فتأمل لتفهم ذلك فقال : قد فهمت هذا
قطعاً ولكنى لا أقنع بمثال واحد فاذكر لى مثالا آخر من موازين
رفقائى ليزداد قلبى سكوناً إلى معرفة انخداعهم بموازين الشيطان
قلت أما سمعت قولهم إن الحق إما أن يعرف بالرأى المحض أو بالتعليم
المحض وإذا بطل أحدهما ثبت الآخر وباطل أن يكون مدركاً
بالرأى العقلى المحض لتعارض العقول والمذاهب فثبت أنه بالتعليم

فقال إى والله قد سمعت ذلك كثيراً وهو مفتاح دعوتهم وعنوان حجتهم قلت : فهذا وزن بميزان الشيطان الذى الصقه بميزان التعاند فإن إبطال أحد القسمين ينتج ثبوت الآخر ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة ، والشيطان يلبس المنتشرة بالمنحصرة فهذه منتشرة إذ ليست دائرة بين النفي والإثبات بل يمكن بينهما قسم ثالث وهو أن يدرك بالعقل والتعليم جميعا وعياره من الصنجات المعلوم بطلانها قول القائل الألوان لا تدرك بالعين بل بنور الشمس فقلنا لم فقال لا تخلو إما أن تدرك بالعين أو بنور الشمس وباطل أن تدرك بالعين لأنه لا يدرك بالليل فثبت أنه يدرك بنور الشمس فيقال له يا مسكين ثم قسم ثالث وهو أن يدرك بالعين ولكن عند نور الشمس فقال : قد فهمت هذا ايضا لكن أريد أن تزيدنى شرحا للغلط الواقع فى الأنموذج الاول وهو حديث الحق والوحدة فإن التفطن لموضع الغلط منه لطيف جداً ، قلت : وجه الغلط ما ذكرت وهو التباس اتصاف شىء واحد بشيئين باتصاف شيئين بشىء واحد ولكن اصل هذا الغلط إيهام العكس فإن من علم ان كل واحد حق ربما يظن ان كل حق واحد وليس يلزم هذا العكس بل اللازم منه عكس خاص وهو ان بعض الواحد حق فإن قولك كل إنسان حيوان لا يلزم منه عكس عام وهو أن كل حيوان إنسان بل اللازم أن بعض الحيوان إنسان ولا يستولى الشيطان بحيله على الضعفاء بأشد وأكثر من تحيله بإيهام العكس العام

حتى ينتهى إلى المحسوسات حتى أن من رأى حبلا أسود مبرقش اللون يرتاع منه لشبهه بالحية وسببه معرفته أن كل حية فطويل متبرقش اللون فيسبق وهمه إلى عكسه العام ويحكم بأن كل طويل متبرقش اللون فهو حية فيظن منه عكساً عاماً ، وهو أن كل طويل متبرقش اللون أسود فهو حية وإنما اللازم منه عكس خاص وهو أن بعض الطويل المتبرقش حية لا أن كله كذلك وفى العكس والنقيض دقائق كثيرة لا تفهمها إلا من كتاب محك النظر ومعيار العلم فقال : إنى أجد بكل مثال تذكره طمأنينة أخرى لمعرفة موازين الشيطان فلا تبخل على بمثال آخر من موازين الشيطان . قلت : إن فساد ذلك الميزان تارة يكون من سوء التركيب بأن لا يكون تعلق الكفتين بالعمود تعلقاً مستقيما وتارة يكون من نفس الكفة وفساد طينتها التى منها اتخذت فإنها إما أن تتخذ من حديد أو نحاس أو جلد حيوان فلو اتخذت من الثلج أو القطن لم يمكن الوزن به والسيف تارة يفسد لخلل شكله بأن يكون على هيئة العصا غير معترض ولا حاد وتارة يكون من فساد طينته ومادته التى منها اتخذ بأن يكون متخذاً من خشب أو طين وكذلك ميزان الشيطان قد يكون فساده لفساد تركيبه كما ذكرته فى مثال كبر الشمس ووحدة الحق فإن صورتهما مختلة معكوسة كالذى يجعل الكفتين فوق العمود فيريد أن يزن به وتارة يكون لفساد المادة كقول إبليس أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فى جواب قوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين) وقد أدرج إبليس فى هذا ميزانين إذ علل منع السجود

بكونه خيراً منه ثم أثبت الخيرية بأنه خلق من نار وإذا صرح بجميع أجزاء حجته وجد ميزانه مستقيم التركيب لكن فاسد المادة وكمال صورته أن يقول ما خلق من نار خير والخير لا يسجد فإنا إذاً لا أسجد فكلا أصلى هذا القياس ممنوع لأنه غير معلوم والعلوم الخفية توزن بالعلوم الجلية وما ذكره غير جلى ولا مسلم إذ نقول له نسلم أنك خير منه وهذا منع الأصل الأول والآخر أنا لا نسلم أن الخير لا يلزمه السجود لأن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية لكن ترك ابليس الدلالة على الأصل الثانى وهو أن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية واشتغل بإقامة الدليل على أنه خير لأنى خلقت من نار وهذه دعوى الخيرية بالنسب وكمال صوره دليله وميزانه أن يقول المنسوب إلى الخير خير وأنا منسوب إلى الخير فإذا أنا خير وكلتا هاتين الكلمتين أيضاً فاسدة فإنا لا نسلم أن المنسوب إلى الخير خير بل الخيرية بصفات الذات لا بالنسب ، فيجوز أن يكون الحديد خيراً من الزجاج ثم يتخذ من الزجاج بحسن الصنعة ما هو خير من المتخذ من الحديد وكذلك نقول إبراهيم صلوات الله عليه خير من ولد نوح وإن كان إبراهيم مخلوقاً من آزر وهو كافر وولد نوح من نبى . وأما أصله الثانى وهو أنه مخلوق من خير لأن النار خير من الطين فهذا أيضاً غير مسلم بل الطين خير لأنه من التراب والماء وربما يقال إن بامتزاجهما قوام الحيوان والنبات وبهما يحصل النشوء والنمو ، وأما النار فمفسده ومهلكة للجميع فقوله إن النار خير باطل . فهذه الموازين صحيحة الصورة فاسدة المادة تشبها

بالسيف المتخذ من الخشب بل هى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه وكذا يرى أهل التعليم أحوالهم يوم القيامة إذا كشفت لهم حقائق موازينهم وهذا أيضاً مدخل من مداخل الشيطان ينبغى أن يسد بل المادة الصحيحة التى تستعمل فى النظر كل أصل معلوم قطعاً إما بالحس وإما بالتجربة وإما بالتواتر الكامل أو بأول العقل او بالاستنتاج من هذه الجملة . أما الذى يستعمل فى المحاجه والمجادلة فما يعترف به الخصم ويسلمه وإن لم يكن معلوماً فى نفسه فإنه تصير حجته عليه وكذلك تجرى بعض أدلة القرآن فلا ينبغى أن تنكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك فى أصولها لأنها أورت على طوائف كانوا معترفين بها .

القول فى الاستغناء بمحمد صلى الله عليه وسلم
وبعلماء أمته عن إمام معصوم آخر
وبيان معرفة صدق محمد صلى الله عليه وسلم
بطريق أوضح من النظر فى المعجزات
وأوثق منه وهو طريق العارفين

فقال : لقد أكملت الشفاء وكشفت الغطاء وأتيت باليد البيضاء لكن بنيت قصراً وهدمت مصراً فإنى إلى الآن كنت أتوقع أن أتعلم منك الوزن بالميزان وأستغنى بك وبالقرآن عن الإمام المعصوم فالآن إذ ذكرت هذه الدقائق فى مداخل الغلط فقد آيست من الاستقلال به فإنى لا آمن أن أغلط لو اشتغلت بالوزن وقد عرفت الآن لم اختلف

الناس فى هذه المذاهب وذلك لأنهم لم يتفطنوا لهذه الدقائق كما فطنت فغلط بعضهم وأصاب بعضهم فإذاً أقرب الطرق لى أن أعول على الامام المعصوم حتى أتخلص من هذه الدقائق . فقلت : يا مسكين معرفتك بالإمام الصادق ليست ضرورية فهى إما أن تكون تقليداً للوالدين أو موزونة بشىء من هذه الموازين فإن كل علم ليس أوليا فبالضرورة يكون حاصلا عند صاحبه بقيام هذه الموازين فى نفسه وإن كان هو لا يشعر به فإنك عرفت صحة ميزان التقدير بانتظام الأصلين فى ذهنك التجريبى والحسى وكذلك سائر الناس وهم لا يشعرون به ومن يعرف مثلا أن هذا الحيوان غير حامل لأنه بغل عرفه بانتظام الأصلين اللذين ذكرناهما فى صدر الكتاب وإن كان لا يشعر بصدوره عليه . وكذلك كل علم فى العالم يحصل للإنسان فيكون كذلك فأنت إن أخذت اعتقاد العصمة فى الإمام الصادق بل فى محمد صلى الله عليه وسلم تقليداً للوالدين والرفقاء لم تتميز عن اليهود والنصارى والمجوس فإنهم كذلك فعلوا وإن أخذته من الوزن بشىء من هذه الموازين فلعلك غلطت فى دقيقة من دقائقه فينبغى على زعمك أن لا تثق به فقال : صدقت فأين الطريق فلقد سددت على طريق التعليم والوزن جميعاً قلت : هيهات راجع القرآن فقد علمك الطريق إذ قال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ولم يقل سافروا إلى الإمام المعصوم فإذا هم مبصرون فأنت تعلم أن المعارف كثيرة فلو ابتدأت فى كل مشكلة سفراً إلى الإمام المعصوم بزعمك طال عناؤك

وقل علمك لكن طريقك أن تتعلم منى كيفية الوزن وتستوفى شروطه فان أشكل عليك شيء عرضته على الميزان وتفكرت فى شروطه بفكر صاف وجدواف فاذ أنت مبصر وهذا كما لو حسبت ما للبقال عليك أو لك عليه أو قسمت فى مسأله من مسائل الفرائض وشككت فى الإصابة والخطأ فيطول عليك أن تسافر إلى الإمام المعصوم ولكن تحكم علم الحساب وتتذكره ولا تزال تعاوده مرة بعد أخرى حتى تستيقن قطعا أنك ما غلطت فى دقيقة من دقائقها وهـــذا يعرفه من يعرف علم الحساب وكذلك من يعرف الوزن به كما أعرفه فينتهى به التذكر والتفكر والمعاودة مرة بعد أخرى إلى اليقين الضرورى بأنه ماغلط فان لم تسلك هذه الطريق لم تفلح قط وصرت تشكك بلعل وعسى ولعلك قد غلطت فى تقليدك لإمامك بل للنبى الذى آمنت به فان معرفة صدق النبى صلى الله عليه وسلم ليست ضرورية فقـال : لقد ساعدتنى عـــلى أن التعلم حق وأن الإمام هو النبى صلى الله عليه وسلم واعترفت بأن كل واحد لا يمكنه أن يأخذ العلم من النبى صلى الله عليه وسلم دون معرفة الميزان وأنه لا يمكنه معرفة تمـــام الميزان إلا منك فكأنك ادعيت الإمامة لنفسك خاصة فما برهانك ومعجزتك فإن إمامى إما أن يقيم معجزة وإما أن يحتج بالنص المتعاقب من آبائه إليه فأين نصك وأين معجزتك فقلت : أما قولك إنك تدعى الإمامة لنفسك خاصة فليس كذلك فإنى أرجو أن يشاركنى غيرى فى هـذه المعرفة فيمكن أن يتعلم منه كما يتعلم منى فلا أجعل التعليم وقفاً على نفسى . وأما قولك تدعى الإمامة

لنفسك فاعلم أن الإمام قد نعنى به الذى يتعلم من الله تعالى بواسطة جبريل وهـذا لا أدعيه لنفسى وقد نعنى به الذى يتعلم من الله بغير جبريل ومن جبريل بواسطة الرسول ولهذا سمى عـلى رضى الله عنه إماماً فانه تعلم من الرسول لا من جبريل وأنا بهذا المعنى أدعى الإمامة لنفسى . أما برهانى عليه فأوضح من النص ومما تعتقده معجزة فإن ثلاثة أنفس لو ادعوا عندك أنهم يحفظون القرآن . فقلت : ما برهانكم ؟ فقال أحدهم برهانى أنه نص على الـكسائى أستاذ المقرئين إذ نص على أستاذى وأستاذى نص على فـكأن الـكسائى نص على . وقال الثانى إنى أقلب العصاحية فقلب العصاحية . وقال الثالث برهانى أنى أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف فليت شعرى أى هذه البراهين أوضح عندك وقلبك بأيها أشد تصديقاً فقـــال بالذى قرأ القرآن فهو غاية البراهين إذ لا يخالجنى فيه ريب — أما نص أستاذه عليه ونص الـكسائى عـــلى أستاذه فيتصور أن تقع فيه أغاليط لاسيما عند طول الأسفار . وأما قلب العصاحية فلعله فعل ذلك بحيلة وتلبيس وإن لم يـكن تلبيساً فغايته أنه فعل عجيب ومن أين يلزم أن من قدر على فعل عجيب ينبغى أن يـكون حافظاً للقرآن . قلت : فبرهانى إذاً أيضاً أنى كما عرفت هذه الموازين فقد عرفت وأفهمت وأزلت الشك عن قلبك فى صحته فيلزمك الإيمان بإمامتى كما أنك إذا تعلمت الحساب وعلمته من أستاذ فانه إذا علمك الحساب حصل لك علم بالحساب وعلم آخر ضرورى بأن أستاذك حاسب وعالم بالحساب كذلك فقد علمت من تعليمه عله

وصحة دعواه أيضاً فى أنه حاسب وكذلك آمنت أنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق موسى عليه السلام لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية بمجردهما فإن ذلك يتطرق إليه حينئذ التباس كثير فلا يوثق به بل من يؤمن بقلب العصا حية يكفر بخوار العجل . فإن التعارض فى عالم الحس والشهادة كثير جداً لكنى تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الالهية[1] بل أحوال المعاد[2] وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة[3] كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن فوجدت جميعها موافقة لما فى القرآن ولما فى الأخبار وتيقنت أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق وان القرآن حق وفعلت كما قال على رضى الله عنه إذا قال (لا تعرف الحق بالرجال أعرف الحق

---

(١) أشار إلى ذلك فى تسع وأربعين آية من سورة النحل من قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه — إلى قوله — لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) وغير ذلك .

(٢) أشار إلى ذلك فى ست عشرة آية من سورة الحج من قوله : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى — إلى قوله — وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) وغير ذلك .

(٣) أشار إلى ذلك فى النمط الثانى من الكتاب المذكور فى جملة آيات فليرجع إليه .

تعرف أهله) فكانت معرفتى بصدق النبى عليه السلام ضرورية كمعرفتك إذا رأيت رجلا عربيا يناظر فى مسألة من مسائل الفقه ويحسن فيها ويأتى بالفقه الصحيح الصريح فإنك لا تتمارى فى أنه فقيه ويقينك الحاصل به أوضح من اليقين الحاصل بفقه لو قلب ألف عصا ثعباناً لأن ذلك يتطرق إليه احتمال السحر والتلبيس والطلسم وغيرهم ولا يحصل العلم بالقرآن بينها وبين هذه الأشياء وكونها معجزة إلا بعد بحث طويل ونظر دقيق ويحصل به إيمان ضعيف هو إيمان العوام والمتكلمين ، فأما إيمان أرباب المشاهدة الناظرين من مشكاة الربوبية كذلك تكون . فقال : فأنا أيضاً أشتهى أن أعرف النبى صلى الله عليه وسلم كما عرفته وقد ذكرت أن ذلك لا يعرف إلا بأن توزن جميع المعارف الالهية بهذا الميزان وما اتضح عندى أن جميع المعارف الدينية يمكن وزنها بهذه الموازين فمم أعلم ذلك . قلت : هيهات لا أدعى أنى أزن بها المعارف الدينية فقط بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والفقهية والكلامية وكل علم حقيقى غير وضعى فإنى أميز حقه عن باطله بهذه الموازين وكيف لا وهو القسطاس المستقيم والميزان الذى هو رفيق الكتاب والقرآن فى قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وأما معرفتك بقدرتى على هذا فلا تحصل لا بنص ولا بقلب العصا ثعباناً ولكن تحصل بأن تستكشف ذلك تجربة وامتحاناً فدعى الفروسية لا ينكشف صدقه حتى يركب فرساً ويركض ميداناً فسلنى

عما شئت من العلوم الدينية لأكشف لك الغطاء عن الحق فيه واحداً واحداً وأزنه بهذا الميزان وزناً يحصل لك علم ضرورى بأن الوزن صحيح وأن العلم المستفاد منه مستيقن ومن لم يجرب لم يعرف . فقال : وهل يمكنك أن تعرف جميع الحقائق والمعارف الالهيه جميع الخلق فترفع الاختلافات الواقعه بينهم . قلت هيهات لا اقدر عليه وكان إمامك المعصوم إلى الآن قد رفع الاختلافات بين الخلائق وأزال الاشكالات عن القلوب بل الأنبياء متى رافعوا الاختلاف ومتى قدروا عليه بل اختلاف الخلق حكم ضرورى ازلى . ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمه ربك ، اوأدعى أن اراد قضاء الله الذى قضى به الأزل أو يقدر إمامك أن يدعى ذلك فان كان يدعيه فلم ادخره إلى الآن والدنيا طافحة بالاختلافات . وليت شعرى رئيس الامه على بن ابى طالب رضى الله عنه كان سبب رفع الاختلافات بين الخلق أو سبب تأسيس اختلافات لا تنقطع أبد الدهر .

القول فى طريق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات

فقال : كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات . قلت : أن اصغوا إلى ، رفعت الاختلاف بينهم بكتاب الله تعـــالى ولكن لاحيلة فى إصغائهم فانهم لم يصغوا بأجمعهم إلى الأنبياء ولا إمامك فكيف يصغون إلى وكيف يجتمعون على الإصغاء وقد حكم عليهم فى الأزل بأنهم لايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وكون

الخلاف بينهم ضرورياً تعرفه من كتاب جواب مفصل الخلاف وهو الفصول الاثنا عشر . فقال : فلو أصغوا كيف كنت تفعل . قلت : كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى إذ قال (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد) الاية وإنما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحـــد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم . فقال : فمن هم وكيف علاجهم . قلت : الناس ثلاثة أصناف عوام وهم أهل السلامة ، البله وهم أهل الجنة ، وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة . أما الخواص فانى اعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها فيرتفع الخلاف بينهم على قرب وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال (إحداها) القريحة النافذة والفطنة القوية وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية لايمكن كسبها (والثانية) خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع فان المقلد لايصغى والبليد وإن أصغى فلا يفهم (الثالثة) أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك .

(والصنف الثانى البله) وهم جميع العوام وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق وإن كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب بل شغلتهم الصناعات والحرف وليس فيهم أيضا داعية الجدال بخلاف المتكايسين فى العلم مع قصور الفهم عنه فهؤلاء لايختلفون

ولكن يتخيرون بين الأئمة المختلفين فأدعوا هؤلاء إلى الله بالموعظة كما أدعوا أهل البصيرة بالحكمة وأدعوا أهل الشغب بالمجادلة وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة فى آية واحدة كما تلوته عليك أولا فأقول لهم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعرابى جاءه فقال علمنى من غرائب العلم فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليس أهلا لذلك فقال وماذا علمت فى رأس العلم أى الإيمان والتقوى والاستعداد الآخرة اذهب فأحكم رأس العلم ثم ارجع لأعلمك من غرائبه . فأقول للعامى ليس الخوض فى الاختلافات من عشك فادرج فاياك أن تخوض فيه أو تصغى إليه فتهلك فانك إذا صرفت عمرك فى صناعة الصياغة لم تكن من أهل الحياكة وقد صرفت عمرك فى غير العلم فكيف تكون من أهل العلم ومن أهل الخوض فيه فاياك ثم إياك أن تهلك نفسك فكل كبيرة تجرى على العامى أهون من أن يخوض فى العلم فيكفر من حيث لا يدرى . فان قال : لابد من دين أعتقده وأعمل به لأصل به إلى المغفرة والناس مختلفون فى الأديان فبأى دين تأمرنى أن آخذ أو أعول عليه فأقول له للدين أصول وفروع والاختلاف إنما يقع فيهما أما الأصول فليس عليك أن تعتقد فيها إلا ما فى القرآن فان الله تعالى لم يستر عن عباده صفاته وأسماءه فعليك أن تعتقد ان لا إله إلا الله وان الله حى عالم قادر سميع بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شيء إلى جميع ما ورد فى القرآن واتفق عليه الأئمة فذلك كاف فى صحة الدين وإن تشابه عليك شيء فقل آمنا كل من عند ربنا واعتقد

كل ما ورد في إثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفي المماثلة واعتقاد أنه ليس كمثله شيء وبعد هذا لا تلتفت إلى القيل والقال فإنك غير مأمور به ولا هو على حد طاقتك فإن أخذ يتحذلق ويقول عليه وقد اختلف فيه الأشعرية والمعتزلة فقد خرج بهذا عن حد العوام إذ العامي لا يلتفت قلبه إلى مثل هذا ما لم يحركه شيطان الجدل فإن الله لا يهلك قوماً إلا يؤتيهم الجدل كذلك ورد الخبر واذا التحق بأهل الجدل فسأذكر علاجهم هذا ما أعظ به في الأصول وهو الحوالة على كتاب الله فإن الله أنزل الكتاب والميزان والحديد وهؤلاء أهـــل الحوالة على الكتاب — وأما الفروع فأقول لا تشغـــل قلبك بمواقع الخلاف مالم تفرغ عن جميع المتفق عليه فقـد اتفقت الأئمة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع وأن الكسب الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام والفرائض كلها واجبة فإن فرغت من جميعها علمتك طريق الخلاص من الخلاف فإن هو طالبني بها قبل الفراغ من هذا كله فهو جدلي وليس بعامي ومتى تفرغ العامي من هـــذا إلى مواضع الخلاف . أفرأيت رفقاءك قـد فرغوا من جميع هذا ثم أخذ إشكال الخلاف بخنقهم هيهات ما أشبه ضعف عقولهم في خلافهم إلا بعقل مريض به مرض أشرف على الموت وله علاج متفق عليه بين الأطباء وهو يقول قد اختلف الأطباء في بعض الادوية أنها حارة أو باردة وربما افتقرت إليه يوما فأنا لا أعالج نفسي حتى أجد من يعلمني رفع الخلاف فيه . نعم

لو رأيتم صالحاً قد فرغ من حدود التقوى كلها . وقال : ها أنا تشكل على مسائل فإنى لا أرى أتوضأ من اللمس والقىء والرعاف وأنوى الصوم بالليل فى رمضان أو بالنهار إلى غير ذلك فأقول له : إن كنت تطلب الأمان فى طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ بما يتفق عليه فتوضأ من كل ما فيه خلاف فإن كل من لا يوجبه يستحبه وأنو الصوم بالليل فى رمضان فإن من لا يوجبه يستحبه فإن قال هو ذا يثقل على الاحتياط ويعرض لى مسائل تدور بين النفى والإثبات وقال لا أدرى أأقنت فى الصبح أم لا وأجهر بالتسمية أم لا فأقول له الآن اجتهد مع نفسك وانظر إلى الأئمة أيهم أفضل عندك وصوابه أغلب على قلبك كما لو كنت مريضاً وفى البلد أطباء فإنك تختار بعض الأطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد فى أمر دينك فمن غلب على ظنك أنه الأفضل فاتبعه فإن أصاب فيما قال عند الله فله فى ذلك أجران وإن أخطأ فله عند الله فى ذلك أجر واحد وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » ورد الله تعالى الأمر إلى أهل الاجتهاد وقال تعالى لتعليمه الذين يستنبطونه منهم وارتضى الاجتهاد لأهله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : بم تحكم ؟ قال بكتاب الله قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإن لم تجد ؟ قال اجتهد رأيى قال ذلك قبل أن أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى

وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله . ففهم من ذلك أنه مرضى به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وغيره كما قال الأعرابى إنى هلكت وأهلكت واقعت أهلى فى نهار رمضان فقال أعتق رقبة ففهم أن التركى أو الهندى لو جامع أيضاً لزمه الإعتاق وهذا لأن الخلق ماكلفوا الصواب عند الله فإن غير ذلك مقدور عليه ولا تكليف بما لا يطاق بل كلفوا ما يظنونه صواباً كما لم يكلفوا الصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنونه أنه طاهر فلو تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء إذ نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله فى أثناء الصلاة لما أنبأه جبريل أن عليه قذراً ولم يعد الصلاة ولم يستأنف وكذلك لم يكلف أن يصلى إلى القبلة بل إلى جهة يظن أنها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس فإن أصاب فله أجران وإلا فله أجر واحد ولم يكلفوا أداء الزكاة إلى الفقير بل إلى من ظنوا فقره لأن ذلك لا يعرف باطنه ولم يكلف القضاة فى سفك الدماء وإباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقه وإذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود فلم لا تجوز الصلاة بظن شهادة الأدلة عند الاجتهاد ، وليت شعرى ماذا يقول رفقاؤك فى هذا يقولون إذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر إلى الإمام ويسأله أو يكلفه الإصابة التى لا يطيقها او يقول اجتهد لمن لا يمكنه الاجتهاد إذ لا يعرف ادلة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب أو الجبال والرياح قال لا أشك فى أنه يأذن له فى الاجتهاد ثم لا يؤثمه إذا

بذل مجهوده وإن أخطأ أو صلى إلى غير القبلة . قلت فإذا كان من جعل القبلة خلفه معذوراً مأجوراً فلا يبعد أن يكون من أخطأ فى سائر الاجتهادات معذوراً فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم معذورون بعضهم مصيبون ما عند الله وبعضهم يشاركون المصيبين فى أحد الأجرين فمناصبهم متقاربة وليس لهم أن يتعاندوا وأن يتعصب بعضهم مع بعض لا سيما والمصيب لا يتعين وكل واحد منهم يظن أنه مصيب كما لو اجتهد مسافران فى القبلة فاختلفا فى الاجتهاد فحقهما أن يصلى كل واحد منهما إلى الجهة التى غلبت على ظنه وأن يكف إنكاره وإعراضه واعتراضه على صاحبه لأنه لم يكلف إلا استعمال موجب ظنه — أما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه وكذلك كان معاذ فى اليمن يجتهد لا على اعتقاد أنه لا يتصور منه الخطأ لكن على اعتقاد أنه إن أخطأ كان معذوراً وهذا لأن الأمور الوضعية الشرعية التى يتصور أن تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشىء من نقيضه بعد كونه مظنوناً فى سر الاستبصار — وأما مالا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف ، وحقيقة هذا الفصل تعرفه من أسرار اتباع السنة وقد ذكرته فى الأصل العاشر[1] من الأعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن (وأما النصف الثالث) وهم أهل الجدل فانى أدعوهم بالتلطف إلى الحق وأعنى بالتلطف أن لا أتعصب عليهم ولا أعنفهم لكن أرفق وأجادل بالتى هى أحسن وكذلك أمر الله تعالى رسوله ومعنى المجادلة بالأحسن

---

(١) أشار إلى ذلك فى الفصل العاشر من القسم الثانى .

أن آخذ الأصول التى يسلمها الجدلى وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذى أوردته فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وإلى ذلك الحد فان لم يقنعه ذلك لتشوفه بفطنته إلى مزيد كشف رقيته إلى تعليم الموازين فان لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجاجه وعناده عالجته بالحديد فان الله سبحانه جعل الحديد والميزان قرينى الكتاب ليفهم منه أن جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه الثلاث فالكتاب للعوام والميزان للخواص والحديد الذى فيه بأس شديد الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأنهم وأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم دون أهل الجدل وأعنى بأهل الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة لكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد فذلك يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فان الفطنة البتراء والكياسة الناقصه شر من البلاهة بكثير وفى الخبر أن أكثر أهل الجنه البله وأن عليين لذوى الألباب ويخرج من جملة الفريقين الذين يجادلون فى آيات الله واولئك أصحاب النار ويزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن وهؤلاء ينبغى ان يمنعوا من الجدال بالسيف والسنان كما فعل عمر رضى الله عنه برجل إذ سأله عن آيتين متشابهتين فى كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة وكما قال مالك رضى الله عنه لما سئل عن الاستواء على العرش فقال الاستواء حق والإيمـان

به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنـــه بدعة وحسم بذلك باب الجدال ، وكذلك فعل السلف كلهم وفى فتح باب الجدال ضرر عظيم على عباد الله تعالى فهذا مذهبى فى دعوة الناس إلى حق وإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الحق وذلك بأن دعوة الخواص إلى الحكمة بتعليم الميزان حتى إذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة فإن من معه ميزان فإنه يعرف به مقادير أعيان لا نهاية لهـــا كذلك من معه القسطاس المستقيم فمعه الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً لا نهاية له ولولا اشتمال القرآن على الموازين لما صح تسمية القرآن نوراً لأن النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره وهو نعت الميزان ولمـــا صدق قوله ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، فان جميع العلوم غير موجودة فى القرآن بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التى بها تفتح أبواب الحكمة التى لا نهاية لها فبهذا أدعو الخواص ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالإحالة على الكتاب والاقتصار على ما فيه من الصفات الثابتة لله تعالى ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التى هى أحسن فان أبى عرضت عن مخاطبته وكففت شره ببأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان فليت شعرى الآن يارفيقى بم يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون ويخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرج الجدال من أدمغة المجادلين بالحاجة ولم يقدر على ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة محاجة الله تعالى فى القرآن مع الكفار فما أعظم قدرة إمامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله أو يدعو أهــل البصيرة إلى تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعباناً بــل يقولون وهو فعل غريب ولكن من أين يلزم منه صدق فاعله وفى العالم من غرائب السحر والطلسمات ما تتحير فيه العقول ولا يقوى على تمييز المعجزة عن السحر والطلسم إلا من عرف جميعها وجملة أنواعها ليعلم أن المعجز خارج عنهــا كما عرف سحرة فرعون معجز موسى عليه السلام إذ كانوا من أئمة السحرة . ومن الذى يقوى على ذلك بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة ان يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب صدق استاذه فى قوله إنى حاسب فهذه هى المعرفة اليقينية التى بها يقنع أولوا الألباب واهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتة وهم إذا عرفوا بمثل هــذا المنهاج صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك واخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن فمن اين يحتاجون إلى امامك المعصوم وما الذى جل من اشكالات الدين وعن ماذا كشف عن غوامضه قال الله تعالى (هــذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) وقد سمعت الآن منهاجى فى موازين العلوم فارنى ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من إمامك إلى الآن وما الذى يتعلمون منه وليت شعرى ما الذى تعلمت من امامك المعصوم أرنى ما رأيتها :

ما يسدى بى رتسدى أوف خران وقلب يا وفوت[1]

فليس الغرض من الدعوة إلى المائدة مجرد الدعوة دون الاكل والتناول منها وإنى أراكم تدعون الناس إلى الإمام ثم أرى المستجيب أمامك بعد الاستجابة على جهله الذى كان قبله لم يحل له لإمام عقداً بل ربما عقد له حلا ولم تفده استجابته له علما بل ربما زاد به طغياناً وجهلا وقال : قد طالت صحبتى مع رفقائى ولكن ما تعلمت منهم شيئاً إلا أنهم يقولون عليك بمذهب التعليم وإياك والراى والقياس فانه متعارض مختلف . قلت : فمن الغرائب ان يدعوا إلى التعليم ثم لا يشتغلوا بالتعليم فقل لهم قد دعوتمونى إلى التعليم فاستجبت فعلمونى ما عندكم فقال : ما اراهم يزيدوننى على هذا شيئا . قلت : فانى قائل ايضاً بالتعليم وبالإمام وببطلان الراى والقياس وانا ازيدك على هذا لو اطقت ترك التقليد تعليم غرائب العلوم واسرار القرآن فاستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها كما استخرجت منه موازين العلوم كلها على ما اشرت إلى كيفيه انشعاب العلوم كلها منه فى كتاب جواهر القرآن لكنى لست أدعو إلى إمام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ولا إلى كتاب سوى القرآن فمنه استخرج جميع أسرار العلوم : وبرهانى عن ذلك لسانى وبيانى ، وعليك إن شككت تجربيى وامتحانى أقرانى اولى بأن يتعلم من رفقائك ام لا ؟ .

---

(١) البيت فارسى . وقد نظمت معناه فيما يقرب منه فجاء كما ترى :

يبعد قلب المحب وما مضى يهدم إسداء عرف ولم تصل حقيقته

القول فى تصاوير الرأى والقياس وإظهار بطلانهما

فقال أما الانقطاع عن الرفقاء والتعلم منك فربما يمنعنى منه ما حكيته لك من وصية والدتى حين كانت تموت ولكنى أشتهى أن تكشف عن وجه فساد الرأى والقياس فإنى أظنك تستضعف عقلى فتلبس على فتسمى القياس والرأى ميزاناً وتتلو على وفق ذلك قرآناً وأنا أظنه أنه بعينه القياس الذى يدعيه أصحابك : قلت : هيهات فها أنا أشرح لك ما أريده وأرادوه بالرأى والقيــــاس . أما الرأى والقياس فمثاله قول المعتزلة يجب على الله سبحانه وتعـــالى رعاية الأصلح لعباده وإذا طولبوا بتحقيقه لم يرجعوا إلى شىء إلا أنه رأى استحسنوه بعقولهم من مقايسة الخــــالق على الخلق وتشبيه حكمته بحكمتهم ، ومستحسنات العقول هى الرأى الذى لا أرى التعويل عليه فإنه ينتج نتائج تشهد موازين القرآن بفسادها كهذه المقالة فإنى إذا وزنتها بميزان التلازم قلت : لو كان الأصلح واجباً على الله تعالى لفعله ومعلوم أنه لم يفعله فدل على أنه غير واجب فإنه لا يترك الواجب فإن قيل سلمت أنه لو كان واجباً لفعله ولكن لا أسلم أنه لم يفعله فأقول لو فعـــل الأصلح لخلقهم فى الجنة وتركهم فيها فان ذلك أصلح لهم ومعلوم أنه لم يفعل ذلك فدل على أنه لم يفعل الأصلح وهذه أيضاً نتيجة من ميزان التلازم والآن الخصم بين أن ينكر ويقول تركهم فى الجنة فيشاهد كذبه أو يقول كان الأصلح لهم أن يخرجوا إلى الدنيـــا دار البلايا

ويعرضهم للخطايا ثم يقول لآدم يوم يكشف عن الخطايا أخرج يا آدم نصيب النار فيقول كم فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كما ورد فى الخبر الصحيح ويزعم أن ذلك أصلح لهم من خلقهم فى الجنة وتركهم فيها لأن نعيمهم إذ ذاك لا يكون لسعيهم واستحقاقهم فتعظم المنة عليهم والمنة ثقيلة وإذا سمعوا وأطاعوا كان ما أخذوه جزاء وأجرة لا منة فيها وأنا أنزه سمعك ولسانى عن حكاية مثل هذا الكلام فضلا عن الجواب عنه . فانظر فيه لترى قبائح نتائج الرأى كيف هى وأنت تعلم أن الله تعالى ينزل الصبيان إذا ماتوا فى منزل من الجنة دون منازل البالغين المطيعين فإذا قالوا إلهنا أنت لا تبخل بالأصلح لنا والأصلح لنا أن تبلغنا درجتهم فيقول الله على زعم المعتزلة كيف أبلغكم درجتهم وقد بلغوا وتعبوا وأطاعوا وأنتم متم صبياناً فيقولون أنت أمتنا فحرمتنا طول المقام فى الدنيا ومعالى الدرجات فى الآخرة فكان الأصلح لنا والأصلح بنا أن تبلغنا درجتهم أو أن لا تميتنا فلم أمتنا فيقول الله تعالى على رأى المعتزلة إنى قد علمت أنكم لو بلغتم لكفرتم واستحققتم النار خالدين فيها فعلمت أن الأصلح لكم الموت فى الصبا وعند هذا ينادى الكفار البالغون من دركات النار يصطرخون ويقولون أما علمت أنا إذا بلغنا كفرنا فهلا أمتنا فى الصبا فإنا رضوان بعشر عشر درجات الصبيان فعند هذا لا يبقى للمعتزلى جواب يجيب به عن الله تعالى فتكون الحجة للكفار على الله سبحانه تعالى الله عن قول الظالمين علوا كبيراً ، نعم لفعل الأصلح سر يستمد من معرفة سر الله

تعالى فى القدر ولكن المعتزلى لا ينظر من ذلك الأصل فإنه لا يطلع ببضاعة الكلام على ذلك السر فمن هذا خبط خبط عشواء واضطربت عليه الآراء فهذا مثال الرأى الباطل عندى ـ وأما مثال القياس فهو إثبات الحكم فى شىء بالقياس على غيره كقول المجسمة إن الله تعالى وتقدس عن قولهم جسم قلنا لم قالوا لأنه فاعل صانع فكان جسما قياساً على سائر الصناع والفاعلين وهذا هو القياس الباطل كما قلنا لم قلتم إن الفاعل كان جسما لأنه فاعل وذلك لا يقدر على إظهاره مهما وزن بميزان القرآن فإن ميزانه هو الميزان الأكبر من موازين التعادل وصورة وزنه أن يقال كل فاعل جسم والبارىء تعالى فاعل فهو أيضاً جسم فنقول نسلم أن البارىء تعالى فاعل ولكن لا نسلم الأصل الأول وهو أن كل فاعل جسم فمن أين عرفتم ذلك ؟ وعند هذا لا يبقى لهم إلا الاعتصام بالاستقراء والقسمة المنتشرة وكلاهما لا حجة فيه . أما الاستقراء فهو أن يقول تصفحت الفاعلين من حائك وحجام وإسكاف وخياط ونجار وفلان وفلان فوجدتهم أجساماً فعلمت أن كل فاعل جسم فيقال له تصفحت كل الفاعلين أو شذعنك فاعل فإن قال تصفحت البعض فلا يلزم منه الحكم على الكل وإن قال تصفحت الكل فلا نسلم له ذلك فليس كل الفاعلين معلوماً عنده كيف وهل تصفح فى جملة ذلك فاعل السموات والأرض فإن لم يتصفح الكل بل البعض لم يلزم الكل وإن تصفح فهل وجد جسما فان قال نعم فيقال له فاذا وجدت ذلك فى مقدمة قياسك فكيف جعلته أصلا تستدل به

عليه فجعلت نفس وجدانك دليل ما وجدته وهذا خطأ بل ما هو فى تصفحه إلا كمن يتصفح الفرس والإبل والفيـــل والحشرات والطيور فيراها تمشى برجل وهو لم ير الحيه والدود فيحكم بان كل حيوان يمشى برجل وكمن يتصفح الحيوانات فيراها عند المضغ جميعها تحرك الفك الاسفل فيحكم بأن كل حيوان يحرك عند المضغ الفك الأسفل وهو لم ير التمساح فانه يحرك الفك الاعلى وهذا لأنه يجوز أن يكون ألف شخص من جنس واحد على حكم ويخالف الألف واحد وهو لا يفيد برد اليقين فهو القياس الباطل ، وأما اعتصامه بالقسمة المنتشرة فكقوله سبرت أوصاف الفاعلين فكانوا أجساماً لكونهم فاعلين أو لكونهم موجودين أو كيت وكيت ثم يبطل جميع الأجسام فيقول فيلزم من هذا أنهم أجسام لكونهم فاعلين وهـذه هى القسمة المنتشرة التى بها يزن الشيطان مقاييسه وقد ذكرنا بطلانها فقـــال : أظن أنه إذا بطل سائر الأقسام تعين القسم الذى أراده وأرى هـذا برهاناً قوياً عليـه تعويل أكثر المتكلمين فى عقائدهم فانهم يقـــولون فى مسألة رؤية البارى تعالى مرئى لأن العـالم مرئى وباطل أن يقـال إنه مرئى لأنه ذو بياض لأن السواد يرى وباطل ان يرى لكونه جوهراً لأن العـــرض يرى وباطل أن يكون عرضاً لان الجوهـــر يرى وإذا بطلت الاقسام بقى أنه يرى موجوداً فأريد أن تكشف لى عن فساد هـذا الميزان كشفاً ظاهراً لا أشك فيه فقلت : فأنا أورد فى ذلك مثالا حقاً لم ينتج من قياس باطل واكشف الغطاء عنه فأقول : قولنا العـالم حادث حق

ولكن قول القائل إنه حادث لأنه مصور قياساً على البيت وسائر الأبنية المصورة قول باطل لايفيد العلم بحدوث العالم إذ يقال ميزانه الحق ان يقال كل مصور حادث والعالم مصور فيلزم منه انه حادث والأصل الآخر مسلم لكن قولك كل مصور حادث لا يسلمه الخصم وعند هذا يعدل إلى الاستقراء فيقول استقريت كل مصور فوجدته حادثاً كالبيت والقدح والقميص وكيت وكيت وقد عرفت فساد هذا وقد يرجع إلى السبر فيقول البيت حادث فنسبر اوصافه وهو انه جسم وقائم بنفسه وموجود ومصور وهذه اربع صفات وقد بطل تعليله بكونه جسما وقائماً بنفسه وموجوداً فثبت انه معلل بكونه مصوراً وهو الرابع فيقال له هذا باطل من وجوه كثيرة وأذكر منها الأربعة الأول انه إن سلم لك بطلان الثلاث فلا تثبت العلة التى طلبتها فلعل الحكم معلل بعلة قاصرة غير عامة ولا متعدية ككونه مثلا بيتاً فان ثبت كون البيت غير محدث ايضاً فلعل الحكم معلل بالمعنى القاصر على ما ظهر كونه حادثاً إذ يمكن تقدير وصف خاص يجمع الجميع ولا يتعدى الثانى انه إنما يصح إذا تم السبر على الاستقصاء بحيث لا يتصور ان يشذ منه قسم وإذا لم يكن حاصراً بين النفى والإثبات دائراً تصور ان يشذ منه قسم وليس الاستقصاء الحاصر امراً هيناً والغالب انه لا يهتم به المتكلمون والفقهاء بل يقولون إن كان فيه قسم آخر فأبرزه وربما قال الآخر لا يلزمنى ابرازه وطال اللجاج فيه وربما استدل القايس وقال لو كان فيه قسم آخر لعرفناه ولعرفته فعدم معرفتنا تدل على نفى قسم

آخر إذ عدم رؤيتنا الفيل فى مجلسنا تدل على نفى الفيل ولا يدرى قط
هذا المسكن أنه لم نعهد قط فيلا حاضراً لم نره ثم رأيناه وكم رأينا
معانى حاضرة عجزنا جميعاً عن إدراكها ثم تنبهنا لها بعد مدة فلعل فيه
جسما آخر شذعنا لسنا نتنبه له الآن وربما لم نتنبه له طول عمرنا .
الثالث أنا وإن سلمنا الحصر فلا يلزم من إبطال ثلاث ثبوت رابع
بل التركيب الذى يحصل من اربعة يزيد على عشره وعشرين إذ يحتمل
أن تكون العلة آحاد هده الاربعة او اثنين منها أو ثلاثة منها ثم
لا يتعين الاثنان منها ولا الثلاثه بل يتصور أن تكون العلة كونه موجودا
أو جسما أو موجوداً وقائما بنفسه او جسما موجوداً وقائما بنفسه
وموجوداً او موجوداً وبيتا او بيتا ومصورا او بيتا قائما بنفسه
او بيتا وجسما او جسما ومصوراً او جسما وقائما بنفسه او جسما
وموجوداً أو قائما بنفسه وموجوداً ، فهذه بعـــد تركيبات الاثنين
فقس على هذه التركيبات من الثلاث ، واعلم ان الاحكام تتوقف على
وجود اسباب كثيرة مجتمعة فليس يرى الشىء لكون الرائى ذا عين
إذ لا يرى بالليل ولا لاستنارة المرئى بالشمس إذ لا يرى الاعمى ولا
لهما جميعاً إذ لا يرى الهواء ولكن بجملة ذلك مع كون المرئى ملونا
وامور أخر هـــذا حكم الوجود ، اما حكم الرؤية فى الآخرة
فحديث آخر ، الرابع انه إن سلم الاستقصاء وسلم الحصر فى اربعة
وتركنا التركيب فابطال ثلاثة لا يوجب تعدى الحكم بالرابع مطلقا
بل بانحصار الحكم فى الرابع ولعل الرابع ينقسم قسمين والحكم

يتعلق بأحدهما أرأيت لو قسم أولا وقال أما كونه جسما أو موجوداً أو قائماً بنفسه أو مصوراً مثلا بصورة مربعة أو مصوراً بصورة مدورة ثم أبطل الأقسام الثلاثة لم يتعلق الحكم بالصورة مطلقاً بل ربما اختص بصورة مخصوصة فبسبب الغفلة عن مثل هذه الدقائق خبط المتكلمون وكثر نزاعهم إذا تمسكوا بالرأى والقياس وذلك لا يفيد برد اليقين بل يصلح للأقيسة الفقهية الظنية ولإمالة قلوب العامة إلى صوب الصواب والحق فإنه لا تمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة أما ترى العامى الذى به صداع يقول له غيره استعمل ماء الورد فإنى إذا كان بى صداع فاستعملته انتفعت به كأنه يقول هذا صداع فينفعه ماء الورد قياساً على صداعى فيميل قلب المريض إليه فيستعمله ولا يقول له أثبت أولا أن ماء الورد يصلح لكل صداع كان من البرودة أو من الحرارة أو من أبخرة المعدة وأنواع الصداع كثيرة فاثبت أن صداعى كصداعك ومزاجى كمزاجك وسنى كسنك وصناعتى كصناعتك وأحوالى كأحوالك فإن جميع ذلك يختلف به العلاج فإن طالب تحقيق هذه الأمور ليس من شأن العوام لأنهم لا يتشوفون إليها ولا من شأن المتكلمين لأنهم وإن تشوفوا إليها على خلاف العوام فلا يهتدون إلى الطرق المفيدة برد اليقين وإنما هى من شنشنة[1] قوم عرفوها من أحمد صلى الله عليه وسلم وهم قوم اهتدوا بنور الله إلى ضياء القرآن

---

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة .

وأخذوا منه الميـــزان بالقسط والقسطاس المستقيم فأصبحوا قوامين لله بالقسط ، فقال الآن هو هذا يلوح لى مخايل الحق وتباشيره من كلامك فهل تأذن لى فى أن أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ، قلت : هيهات أنك لا تستطيع معى صبراً وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً . قال ستجدنى : إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ، قلت : أظن أنى نسيت اتعاظك بنصيحة رفقائك ووالدتك ومن نبض عليه عرق من عروق التقليد فلا تصلح لصحبتى ولا أصلح لصحبتك فاذهب عنى فهذا فراق بينى وبينك فانى مشغول بتقويم نفسى عن تقويمك وبالتعليم من القرآن عن تعليمك فلا ترانى بعد هـــذا ولا أراك فلا تسع أوقاتى اكثر من هذا لاصلاح الفاسد والضرب فى الحديد البارد ، وقد نصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد نبينا سيد المرسلين .

فهاكم إخوانى قصتى مع رفيق تلوتها عليـــكم بعجرها وبجرها لتقضوا منها العجب وتنتفعوا فى إثبات هذه المحادثات بالتفطن لأمور هى اجل من تقويم مذهب التعليم فلم يكن ذلك من غرضى ولكن إياك اعنى واسمعى يا جارة ، والتماسى من المخلصين قبول معذرتى عنـــد مطالعة هذه المحادثات فيما آثرته فى المذاهب من العقـــد والتحليل وابدعته فى الأسامى من التغيير والتبديل ، واخترعته فى المغانى من التخييل والتمثيل . فلى تحت كل واحد من ذلك غرض صحيح وسر عن ذوى البصائر صريح ، وإياك ان تغيروا هذا النظام وتنتزعوا هذه

المعانى من هذه الكسوة فقد علمتكم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول ليكون القول منهما أسرع إلى القبول ، وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلا والمنقول تابعاً ورديفاً فإن ذلك شنيع منفر ، وقد أمركم الله سبحانه بترك الشنيع والمجادلة بالأحسن ، وإياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتهلكوا وتضلوا وتضلوا ، وماذا تنفع وصيتى وقد اندرس الحق وانكسر البثق [1] وانتشرت الشناعة وطارت فى الأقطار . وصارت ضحكة فى الأمصار ، فإن قوماً اتخذوا هذا القرآن مهجوراً وجعلوا التعليمات النبوية هباء منثورا . وكل ذلك من قصور الجاهلين ودعواهم فى نصرة الدين منصب العارفين . وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين .

تم كتاب القسطاس المستقيم

الذى يصقل العقول ، ويشرح صدور الفحول ، ويهدى إلى سواء السبيل ، ويليه منهاج العارفين : نفع الله تعالى بهما نفعاً عميما .

(إن ربى لسميع الدعاء)

---

(١) البثق : منبعث من الماء .

بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج العارفين

الحمد لله الذى نور قلوب العارفين بذكره ، وأنطق ألسنتهم بشكره ، وعمر جوارحهم بخدمته ، فهم فى رياض الأنس يرتعون وإلى أوكار المحبة يأوون ، ذكرهم فذكروه ، وأحبهم فأحبوه ، ورضى عنهم فرضوا عنه ، رأس مالهم الافتقار ونظام أمرهم الاضطرار ، علمهم دواء الذنوب ، وعرفهم طب القلوب ، فهم مصابيح أنوار حجته ، ومفاتيح خزائن حكمته ، إمامهم القمر الطالع ، وقائدهم النور الساطع ، سيد الموالى والعرب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب والثمرة الزاكية من الشجرة المباركة ، التى أصلها التوحيد ، وفرعها التقوى ، (لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) ، صلى الله عليه وسلم صلاة تلوح فى السموات آثارها وتعلو فى جنان الخلد أنوارها وتطيب فى مشاهد الأنبياء أخبارها ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المطهرين .

باب البيان نحو المريدين

يدور على ثلاثة أصول ، والخوف والرجاء والحب ، فالخوف : فرع العلم، والرجاء : فرع اليقين ، والحب : فرع المعرفة فدليل الخوف : الهرب، ودليل الرجاء الطلب ودليل الحب إيثار المحبوب ومثال ذلك الحرم والمسجد والكعبة فمن دخل حرم الإرادة أمن من الخلق ، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها فى معصية الله تعالى ، ومن دخل الكعبة أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عز وجل . فإذا أصبح العبد لزمه أن ينظر فى ظلمة الليل ونور النهار ويعلم أن أحدهما إذا ظهر عزل صاحبه عن الولاية فكذلك نور المعرفة إذا ظهر عزل ظلمة المعاصى عن الجوارح ، فإن كانت حالته حالة يرضاها لحلول الموت شكر الله تعالى على توفيقه وعصمته وإن كانت حالته حالة يكره معها الموت انتقل عنها بصحة العزيمة وكمال الجهد وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه كما أنه لا وصول إليه إلا به فندم على ما أفسد من عمره بسوء اختياره واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب وتصفية باطنه من العيوب وقطع زنار الغفلة عن قلبه وأطفأ نار الشهوة عن نفسه واستقام على طريق الحق وركب مطية الصدق فإن النهار دليل الآخرة والليل دليل الدنيا والنوم شاهد الموت ، وللعبد قادم على ما أسلف ونادم على ما خلف يقول الله عز وجل (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) .

باب الأحكام

وإعراب القلوب على أربعة أنواع ، رفع وفتح وخفض ووقف

فرفع القلب فى ذكر الله تعالى ، وفتح القلب فى الرضاء عن الله تعالى ، وخفض القلب فى الاشتغال بغير الله تعالى ، ووقف القلب فى الغفلة عن الله تعالى ، فعلامة الرفع ثلاثة أشياء وجود الموافقة وفقد المخالفه ودوام الشوق ، وعلامة الفتح ثلاثة أشياء التوكل والصدق واليقين ، وعلامة الخفض ثلاثة أشياء العجب والرياء والحرص وهو مراعاة الدنيا ، وعلامة الوقف ثلاثة أشياء زوال حلاوة الطاعة وعدم مرارة المعصية والتباس الحلال .

باب الرعاية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وهو علم الأنفاس فيجب أن يكون نفس المريد شكراً أو عذراً ، فإن قبل ففضل وإن رد فعدل فطائع الحركة بالتوفيق والسكون بالعصمة ولا يستقيم ذلك له إلا بدوام الافتقار والاضطرار .

ومفتاح ذلك

ذكر الموت لأن فيه راحة من الحبس ونجاة من العدو وقوامه برد العمر إلى يوم واحد ولن يلتئم ذلك إلا بالتفكر فى الأوقات ، وباب الفكر الفراغ ، وسبب الفراغ الزهد . وعماد الزهد التقوى ، وسنام التقوى الخوف ، وزمام الخوف اليقين ، ونظام اليقين الخلوة والجوع ، وتمامها الجهد والصبر وطريقهما الصدق ، ودليل الصدق العلم

باب النية

لا بد للعبد من النية فى كل حركة وسكون (فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ونية المؤمن خير من عمله) والنية تختلف على حسب اختلاف الأوقات وصاحب النية نفسه منه فى تعب والناس منه فى راحه وليس شيء على المريد أصعب من حفظ النية .

باب الذكر

اجعل قلبك قبلة لسانك واشعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية واعلم بأن الله تعالى يعلم سر قلبك ويرى ظاهر فعلك ويسمع نجوى قولك ، فاغسل قلبك بالحزن وأوقد فيه نار الخوف فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به مع ذكره لك قال الله تعالى (ولذكر الله أكبر) لأنه ذكرك مع الغناء عنك وأنت ذكرته مع الفقر إليه ، وقال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيكون اطمئنان القلب فى ذكر الله له ووجله فى ذكره لله ، قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) والذكر ذكران ذكر خالص بموافقة القلب فى سقوط النظر إلى غير الله ، وذكر صاف بفناء الهمة عن الذكر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

باب الشكر

وفى كل نفس من أنفاس العبد نعمة لله تتجدد عليه يلزمه القيام بشكرها . وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى ويرضى بما

أعطاه ولا يخالفه بشيء من نعمه وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على أصغر جزء من نعمه وإن بلغوا غاية المجهود ، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها فيلزمك على كل شكر شكر إلى مالا نهاية له فاذا تولى الله العبد حمل عنه شكره فرضى عنه بيسير وحط عنه ما يعلم أنه لا يبلغه ويضعفه (وما كان عطاء ربك محظوراً) .

باب اللباس

اللباس نعمة من الله على عبده يستر به البشرة ولباس التقوى ذلك خير ، وخير لباسك مالا يشغل سرك عن الله تعالى فاذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده فلا تفضح أحداً من خلقه بعيب تعلمه منه واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيره فان العبد إذا نسى ذنبه كان ذلك عقوبة له وازداد به جزءاً على المعاصى ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عينى قلبه نصبا ولبكى عليه بجفون سره واستولى عليه الوجل فذاب حياء من ربه وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها انقطع عن حول الله وقوته فاطرح همتك بين يدى الخوف والرجاء (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

باب القيام

فإذا قمت من فراشك فأقم قلبك عن فراش البطالة وأيقظ نفسك عن نوم الجهالة وانهض بكاك إلى من أحياك وردإليك نفسك،وقم بفكرك

عن حركتك وسكونك واصعد بقلبك إلى الملكوت الأعلى ولا تجعل قلبك تابعاً لنفسك فإن النفس تميل إلى الأرض والقلب يميل إلى السماء واستعمل قول الله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

باب السواك

واستعمل السواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب وطهر ظاهرك وباطنك عن دنس الإساءة وأخلص أعمالك عن كدر الرياء والعجب وأجل قلبك بصافى ذكره ودع عنك مالا ينفعك بل يضرك .

باب التبرز

وإذا تبرزت لقضاء وطرك فاعتبر فإن الراحة فى إزالة النجاسة واستنج ونكس رأس همتك وأغلق باب الكبر وافتح باب الندم واجلس على بساط الندامة واجتهد فى إيثار أمره واجتناب نهيه والصبر على حكمه واغسل شرك بترك الغضب والشهوة واستعمل الرغبة والرهبة فإن الله تعالى مدح قوماً فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

باب الطهارة

وإذا تطهرت ففكر فى صفوة الماء ورقته وتطهيره وتنظيفه فإن الله تعالى جعله مباركا فقال (ونزلنا من السماء ماء مباركا) فاستعمله فى الأعضاء التى فرض الله عليك تطهيرها ولتكن صفوتك

مع الله كصفوة الماء فاغسل وجه قلبك عن النظر إلى غير الله واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره وامسح رأسك عن الافتخار بغيره واغسل رجليك عن السعى لغيره واحمد الله على ما ألهمك من دينه .

باب الخروج

فإذا خرجت من منزلك إلى مسجدك فاعلم أن الله تعالى حقوقاً عليك يلزمك أداؤها من ذلك السكينة والوقار والاعتبار بخلق الله برهم وفاجرهم ، قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وغض بصرك عن نظر الغفلة والشهوة وأفش السلام مبتدئاً ومجيبا وأعن من استعانك على الحق وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن كنت من اهله وأرشد الضال .

باب دخول المسجد

فإذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قصدت بيت ملك عظيم قدره لا يقبل إلا الطاهر ولا يصعد إليه إلا الخالص ففكر فى نفسك من انت ولمن أنت وأين أنت ومن إى ديوان يخرج إسمك فإذا استصحلت نفسك لخدمته فادخل فلك الأذن والأمان وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطعت عنه الحيل وانسدت عنه السبل فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه أذن لك فتكون أنت بلا أنت والله يرحم عبده ويكرم ضيفه ويعطى سائله ويبر المعرض عنه فكيف المقبل إليه .

باب افتتاح الصلوات

فإذا استقبلت بوجهك القبلة استقبل بقلبك الحق ولا تنبسط فلست من أهل الانبساط ، واذكر وقوفك بين يديه يوم العرض الأكبر وقف على قدمي الخوف والرجاء وارفع قلبك عن النظر إلى الدنيا والخلق وأرسل همتك إليه فإنه لا يرد الآبق ولا يخيب السائل . فإذا قلت الله أكبر فاعلم أنه لا يحتاج إلى خدمتك له وذكرك إياه لأن الحاجة من حلية الفقراء وذلك سمة الخلق والغنى من صفات ذاته وإنما وظف على عبيده وظائف ليقربهم بها إلى عفوه ورحمته ويبعدهم بها من سخطه وعقوبته قال الله عز وجل (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وقال عز من قائل (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) الآية واشكر الله إذ جعلك أهلا للوقوف بين يديه فإنه (أهل التقوى وأهل المغفرة) أهل أن يتقيه خلقه فيغفر لمن اتقاه .

باب القراءة

قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (إنما سلطانه على الذين يتولونه) (أنه من تولاه فأنه يضله) واذكر عهد الله عليك وميثاقه فى وحيه وتنزيله وأنظر كيف تقرأ كلامه وكتابه فرتل وتدبر وقف عند وعده ووعيده وأمثاله ومواعظه وأمره ونهيه ومحكمه ومتشابهه وإنى لأخشى أن تكون إقامتك حدوده غفلة من تضييعك حدوده . قال الله عز وجل (فبأى حديث بعده يؤمنون) .

باب الركوع

واركع ركوع خاشع لله بقلبه خاضعاً بجوارحه واستوف ركوعك وانحط عن همتك فى القيام بأمره فإنك لا تقدر على أداء فرضه إلا بعونه ولا تبلغ دار رضوانه إلا برحمته ولا تستطيع الامتناع من معصيته إلا بعصمته ولا تنجو من عذابه إلا بعفوه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته) .

باب السجود

واسجد لله سجود عبد متواضع علم أنه خلق من تراب يطؤه جميع الخلق وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد فإذا فكر فى أصله وتأمل تركيب جوهرة من ماء وطين ازداد لله تواضعاً ويقول فى نفسه ويحك لم رفعت رأسك من سجودك لم لم تمت بين يديه وقد جعل الله السجود سبب القرب إليه فقال تعالى (واسجد واقترب) فمن اقترب منه بعد من كل شىء سواه واحفظ صفة سجودك فى هذه الآيه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) واستعن بالله عن غيره فإنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (قال الله تبارك وتعالى لا أطلع على قلب عبد فأعلم منه حب العمل بطاعتى إلا توليت تقويمه وسياسته) .

باب التشهد

والتشهد ثنـــاء وشكر له وتعرض لمزيد فضله ودوام كرامته فاخرج عن دعواك وكن له عبداً بفعلك كما أنت عبد له بقولك فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تكون له عبداً كما خلقك (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة) فاستعمل العبودية فى الرضى بحكمته واستعمل العبادة فى النزول تحت أمره وصل على حبيبه عقب الثناء عليـــه فإنه وصل محبته بمحبته وطاعته بطاعته ومتابعته بمتابعته فقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وأمر رسوله بالاستغفار لك فقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وأمرك بالصلاة عليه فقال تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا وعامله بالفضل) فقال تعالى (ورفعنا لك ذكرك) ثم أمره بمعاملته بالعدل فقال لغيره (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) وقال له (فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) .

باب السلام

السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه فى معاملته ومعاشرة خلقه فإذا أردت السلامة فليسلم منك صديقك وارحم من لا يرحم نفسه فإن الخلق بين فتن ومحن إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكره وإما مبتلى بالشدة ليظهر صبره ، قال الله تعالى (وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا) فالكرامة فى طاعته والهوان فى معصيته ومن ركب الهوى أهانه الله.

باب الدعاء

واحفظ آداب الدعاء وانظــر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ولماذا تسأل ، والدعاء استجابة الكل منك للحق وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة . قال مالك بن دينار أنتم تستبطئون المطر وانا أستبطىء الحجر ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه ولو لم يشترط لنــا الإجابة لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابه . فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء قال الله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) وقال تعالى (ادعونى أستجب لكم) وسئل أبو يزيد البسطامى عن اسم الله الاعظم فقال فرغ قلبك من غيره وادعة بأى أسمائه شئت ، وقال يحيى بن معاذ اطلب صاحب الاسم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يستجيب الله الدعاء من قلب لاه فإذا أخلصت فأبشر بإحدى ثلاث) إما أن يعجل لك

ما سألت وأما أن يدخر لك ما هو أعظم منه وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو صبه عليك لهلكت وادع دعاء مستجد لا دعاء مشير ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (قال الله تبارك وتعالى من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) وقال أبو الحسين الوراق دعوت الله مرة فاستجاب دعائى فنسيت الحاجة فاحفظ حق الله عز وجل عليك فى الدعاء ولا تشتغل بحظك فإنه أعلم بمصلحتك .

باب الصوم

فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات فإن الصوم فناء مراد النفس وفيه صفاء القلب وعمارة الجوارح والتنبيه على الإحسان إلى الفقراء والالتجاء إلى الله والشكر على ما تفضل به من النعم وتخفيف الحساب ، ومنة الله فى توفيقك للصوم أعظم من أن تقوم بشكرها ومن صومك أن لا تطلب منه عوضاً .

باب الزكاة

وعن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله فزكاة القلب التفكر فى عظمته وحكمته وقدرته وحجته ونعمته ورحمته وزكاة العين النظر بالعبرة والغض عن الشهوة وزكاة الأذن الاستماع إلى ما فيه نجاتك وزكاة اللسان النطق بما يقربك إليه وزكاة اليد القبض عن الشر والبسط إلى الخير وزكاة الرجل السعى إلى ما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك .

باب الحج

والمريد إذا حج يعقد النية خوف الرد واستعد استعداد من لا يرجو الإياب وأحسن الصحبة وتجرد عند الاحرام عن نفسه واغتسل من ذنبه ولبس ثوب الصدق والوفاء ولبى موافقة للحق فى إجابة دعوته ، وأحرم فى الحرم من كل شىء يبعده عن الله تعالى وطاف بقلبه حول كرسى كرامته ، وصفى ظاهره ، وباطنه عند الوقوف على الصفا وهرول هربا من هواه ولم يتمن على الله تمنى مالا يحل له واعترف بالخطأ بعرفة وتقرب إلى الله بمزدلفة ورمى الشهوات عند رمى الجمرات ، وذبح هواه وحلق الذنوب وزار البيت معظما صاحبه واستلم الحجر رضاء بقضائه وودع ما دون الله فى طواف الوداع .

باب السلامة

وأطلب السلامة فليت من طلبها وجدها فكيف لمن تعرض للبلاء ، والسلامة قد عزت فى هذا الزمان وهى فى الخمول فان لم تكن فى الخمول فالعزلة وليست كالخمول فان لم تكن عزلة فالصمت وليس كالعزلة فان لم تكن فى صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر وليس كالصمت وإن أردت السلامة فلا تنازع الاضداد ولا تنافس الأشكال كل من قال أنا فقل أنت وكل من قال لى فقل لك والسلامه فى زوال العرف وزوال العرف فى فقد الإرادة وفقد الإرادة فى ترك دعوى العلم فيما استأثر الله به من تدبير أمرك فقال الله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وقال (يدبر الامر من السماء إلى الأرض) .

باب العزلة

صاحب العزلة يحتاج إلى عشرة أشيــاء علم الحق والباطل والزهد واختيار الشدة واغتنام الخلوة والسلامة والنظر فى العواقب وأن يرى غيره أفضل منه ويعزل عن الناس شره ولا يفتر عن العمل فان الفراغ بلاء ولا يعجب بما هو فيه ويخلو بيته من الفضول والفضول ما فضل عن يومك لأهل الإرادة وما فضل عن وقتك لأهل المعرفة ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان : كن حلس بيتك وقال عيسى بن مريم عليه والسلام : أملك لسانك وليسعك بيتك وأنزل نفسك منزلة السبع الضارى والنار المحرقة ، وقد كان الناس ورقاً بلا شوك فصاروا شوكا بلاورق وكانوا أدواء يستشفى بهم فصاروا داء دواء له . قيل لداود الطائى مالك لا تخالط الناس فقال كيف أخالط من يتبع عيوبى كبير لا يعرف الخلق وصغير لا يوقر ، من استأنس بالله استوحش من غيره ، وقال الفضيل إن استطعت أن تكون فى موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل وقال سليمان : همى من الدنيا أن ألبس عباءة وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفنى ولا غذاء لى ولا عشاء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يأتى زمان المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر وله أجر خمسين منكم) وفى العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسقوط حقوق الخلق وإغلاق أبواب الدنيا وكسر سلاح الشيطان وعمارة الظاهر والباطن .

باب العبادة

اقبل على أداء الفرائض فان سلم لك فرضك وأنت أنت واطلب بالنوافل حفظ الفرائض وكلما ازددت عبادة فازدد شكراً وخوفاً قال يحيي بن معاذ عجبت لطالب فضيلة تارك تربضة ومن كان عليه دين فأهدى إلى صاحب الدين مثل حقه كان مطالباً بالحق إذا حل الآجل وقال أبو بكر الوراق : ابذل فى هذا الزمان أربعة على أربعة الفضائل على الفرائض والظاهر على الباطن والخلق على النفس والكلام على الفعل .

باب التفكر

تفكر فى قوله عز وجل (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) واذكر كيف أحوالك واعتبر بما مضى من الدنيا على ما تراه ، هل أبقت على أحد ، وما بقى منها أشبه بما مضى من من الماء بالماء[1] ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة) وقيل لنوح عليه السلام (كيف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرا قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر) والفكرة أبو كل خير وهى مرآة تريك الحسنات والسيئات .

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده

(١) قال الشيخ محمد بن على بن الساكن فى كتاب دليل الطالب

---

(١) هذه العبارات وجدت بالأصل هكذا .

إلى نهاية المطالب قال فالطالب المجتهد إذا أراد لبس الخرقة فالواجب عليه أن يخلع الثوب الذى كان يلبسه فى أيام العادة وأحسن ما تلابس .

هذه الطائفة الصوف إذ هم منسوبون إليه ، قيل إن أول من لبس الصوف آدم وحوى عليهما السلام ، وكان موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام يلبسون الصوف ، وكان نبينا صلى الله عليـــه وسلم أشرف الأنبياء وكان يلبس عباءة كان مقـدار ثمنه خمس دراهم وينبغى أن لا يلبس الصوف إلا من صفى من كدر النفس فقد قال الحسن البصرى بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تلبسوا الصوف إلا وقلوبكم نقيه فانه من لبس الصوف على دغل وغش فلاوة جبار السماء فاذا لبسه وجب ان يقوم بوظائف حروفه ، وهى ثلاثة ، أما وظيفة الصاد : فهى الصدق والصفاء والصيانة والصبر والصلاح ، وأما وظيفة الواو فهى الوصلة والوفاء والوجد ، وأما وظيفة الفاء : فهى الفرح والتفجع فلو لبس المرقع وجب عليه أن يؤدى حق حروفه ، وهى اربعة فحق الميم المعرفـــة والمجاهد والمدلة وحق الراء الرحمة والرأفة والرياضة والراحة ، وحق القاف القناعة والقربه والقوة والقول الصدق ، وحق العين : العلم والعمل والعشق والعبودية ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بلابس المرقع حيث قال لعائشة رضى الله عنها إن سرك اللحوق بى فاياك ومجالسة الموتى ولا تستبدلى ثوباً حتى ترقعيه انتهى والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة اللدنية

الحمد لله الذى زين قلوب خواص عباده بنور الولاية ، وربى أرواحهم بحسن العناية ، وفتح باب التوحيد على العلماء العارفين بمفتاح الدراية ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين صاحب الدعوة والرعاية ، ودليل الأمة إلى الهداية ، وعلى آله سكان حرم الحماية ، اعلم أن واحداً من أصدقائى حكى عن بعض العلماء أنه أنكر العلم الغيبى اللدنى الذى يعتمد عليه خواص المتصوفة ، وينتمى إليه أهل الطريقة ، ويقولون إن العلم اللدنى اقوى وأحكم من العلوم المكتسبة المحصلة بالتعلم ، وحكى أن ذلك المدعى يقول بأنى لا أقدر على تصور علم الصوفية ، لا اظن أن أحداً فى العالم يتكلم فى العلم الحقيقى من فكر وروية دون تعلم وكسب ، فقلت كأنه ما أطلع على طرق التحصيل ، وما درى أمر النفس الإنسانية وصفاتها وكيفية قبولها لآثار الغيب وعلم الملكوت ، فقال صديق نعم إن ذلك الرجل يقول بأن العلم هو الفقه وتفسير القرآن والكلام حسب ، وليس وراءها علم وهذه العلوم لا تحصل إلا بالتعلم والتفقه ، فقلت نعم فكيف يعلم علم التفسير فإن القرآن هو البحر المحيط المشتمل على جميع الأشياء

وليس جميع معانيه وحقائق تفسيره مذكورة فى هـــذه التصانيف المشهورة بين العوام بل التفسير غير ما يعلم ذلك المدعى ، فقال ذلك الرجل لا يعـد التفاسير إلا التفاسير المعروفة المذكورة والمنسوبة إلى القشيرى والثعلبى والماوردى وغيرهم ، فقلت لقد بعد عن منهج الحقيقة فإن السلمى جمع شيئاً فى التفسير من كلمات المحققين شبه التحقيق ، وتلك الـكلمات غير مذكورة فى سائر التفاسير . وذلك الرجل الذى لا يعـد العلم إلا الفقه والـكلام . وهذا التفسير العامى كأنه ما علم أقسام العلوم وتفاصيلها ومراتبها وحقائقها وظواهرها وبواطنها ، وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشىء ينـكر ذلك الشىء وذلك المدعى ماذاق شراب الحقيقة وما اطلع على العلم اللدنى فـكيف يقر بذلك ، ولا أرضى باقراره تقليداً أو تخمينا ما لم يعرف ، فقال ذلك الصديق أريد أن تذكر طرفاً من مراتب العلوم وتصحيح هذا العلم وتعزيه أنت لنفسك وتقر على إثباته ، فقلت إن هذا المطلوب بيانه عسير جداً لـكن أشرع فى مقدماته بحسب اقتضاء حالى وموافقة وقتى وما سنح بخاطرى ولا أريد تطويل الـكلام فإن خير الـكلام ما قل ودل ، وسألت الله عز وجل التوفيق والإعانة وذكرت مطلوب صديقى الفاضل فى هذا المفصول .

فصـــل

اعلم أن العلم تصور النفس الناطقـــة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة ، والعالم هو المحيط المدرك المتصور ، والمعلوم هو ذات الشىء الذى ينتقش علمه فى النفس ، وشرف العلم على قـــدر شرف

معلومه، ورتبة العــالم تكون بحسب رتبة العلم . ولا شك أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلها هو الله الصانع المبدع الحق الواحد فعلمه هو علم التوحيد أفضل العلوم وأجلها، وأكملها وهذا العلم ضروري واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال صاحب الشرع عليه الصلاة والســلام[١] (طلب العلم فريضة على كل مسلم) . أمر بالسفر فى طلب هذا العلم . فقال صلى الله عليه وسلم[٢] (اطلبوا العلم ولو بالصين) وعالم هـذا العلم أفضل العلماء، وبهذا السبب خصهم الله تعــالى بالذكر فى أجل المراتب، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) فعلماء علم التوحيد بالإطلاق هم الأنبياء وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وهــذا العلم وإن كان شريفاً فى ذاته كاملا فى نفسه لا ينفى سائر العلوم بل لا يحصل إلا بمقدمات كثيرة، وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى مثــل علم السموات والأفلاك وعلم جميع المصنوعات، ويتولد عن علم التوحيد علوم أخر كما سنذكر أقسامها فى مواضعها .

فاعلم أن العــلم شريف بذاته من غير نظر إلى جهة المعلوم حتى أن

---

(١) جزء من حديث نبوى شريف . رواه ابن عبد البر : فى العلم : عن أنس رضى الله عنه، وبقيته :

(وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان فى البحر) .

(٢) وإن تتمة الحديث : (فإن طلب العــلم فريضة على كل مسلم) رواه العقيلى فى الضعفاء، وابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى الشعب وابن عبد البر فى العلم عن أنس رضى الله عنه .

علم السحر شريف بذاته وإن كان باطلا ، وذلك أن العلم ضد الجهل والجهل من لوازم الظلمة ، والظلمة من حيز السكون ، والسكون قريب من العدم ، ويقع الباطل والضلالة فى هذا القسم ، فإذا الجهل حكمه حكم العدم ، والعلم حكمه حكم الوجود ، والوجود خير من العدم ، والهداية والحق والنور كلها فى سلك الوجود ، فإذا كان الوجود أعلى من العدم فالعلم أشرف من الجهل فإن الجهل مثل العمى والظلمة ، والعلم مثل البصر والنور ، (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور) ، وصرح سبحانه بهذه الإشارات فقال (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فإذا كان العلم خيراً من الجهل والجهل من لوازم الجسم ، والعلم من صفات النفس ، والنفس أشرف من الجسم ، وللعلم أقسام كثيرة نحصيها فى فصل آخر . وللعالم فى طلب العلم طرق عديدة نذكرها فى فصل آخر . والآن لا يتعين عليك بعد معرفة فضل العلم إلا معرفة النفس التى هى لوح العلوم ومقرها ومحلها ، وذلك أن الجسم ليس بمحل للعلم لان الأجسام متناهيه ، ولا تسع كثرة العلوم بل لا يحتمل إلا النقوش والرقوم[1] ، والنفس قابلة لجميع العلوم من غير ممانعة ولا مزاحمة وملال وزوال ، ونحن نتكلم فى شرح النفس على سبيل الاختصار .

فصل فى شرح النفس والروح الإنسانى

اعلم أن الله تعالى خلق الإنسان من شيئين مختلفين أحدهما :

---

(١) جمع رقم : وهو الكتابة : قال تعالى : (كتاب مرقوم) .

الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابى الذى لايتم أمره إلا بغيره ، والآخر : هو النفس الجوهرى المفرد المنير المدرك الفاعل المحرك المتمم للآلات والأجسام ، والله تعالى ركب الجسد من أجزاء الغذاء ورباه بأجزاء الرماد ، ومهد قاعدته وسوى أركانه وعين أطرافه وأظهر جوهر النفس من أمره الواحد الكامل المكمل المفرد . ولا أعنى بالنفس القوة الطالبة للغذاء ، ولا القوة المحركة للشهوة والغضب ، ولا القوة الساكنة فى القلب المولدة للحياة والمبرزة للحس والحركة من القلب إلى جميع الأعضاء فإن هذه القوة تسمى روحا حيوانيا ، والحس والحركة والشهوة والغضب من جنده وتلك القوة الطالبة للغذاء الساكنة فى الكبد بالتصرف يقال لها روحا طبيعيا ، والهضم والدفع من صفاتها ، والقوة المصورة والمولدة والنامية وباقى القوى المنطبعة كلها خدام للجسد ، والجسد خادم الروح الحيوانى لأنه يقبل القوى عنه ويعمل بحسب تحريكه ، وإنما أعنى بالنفس ذلك الجوهر الكامل الفردى الذى ليس من شأنه إلا التذكر والتحفظ والتفكر والتمييز والروية ، ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد ، وهذا الجوهر رئيس الأرواح وأمير القوى ، الكل يخدمونه ويمتثلون أمره وللنفس الناطقة أعنى هذا الجوهر عند كل قوم اسم خاص ، فالحكماء يسمون هذا الجوهر النفس الناطقة ، والقرآن يسميه النفس المطمئنة والروح الأمرى ، والمتصوفة تسميه القلب ، والخلاف فى الأسامى والمعنى واحد لاخلاف فيه . فالقلب والروح عندنا ،

والمطمئنة كلها أسامى النفس الناطقة ، والنفس الناطقة هى الجوهر الحى الفعال المدرك ، وحيثما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعنى به هــذا الجوهر ، والمتصوفة يسمون الروح الحيونى نفسا . والشرع ورد بذلك ، فقال(١) (أعدى عدوك نفسك) وأطلق الشارع اسم النفس بل أكدها بالإضافة ، فقال (نفسك التى بين جنبيك) وإنما أشار بهذه اللفظة إلى القوة الشهوانية والغضبية فإنهما ينبعثان عن القلب الواقف بين الجنبين ، فإذا عرفت فرق الأسامى فاعلم أن الباحثين يعبرون عن هذا الجوهر النفيس بعبارات مختلفة ، ويرون فيه آراء متفاوتة ، والمتكلمين المعروفين بعلم الجدل يعدون النفس جسما ، ويقولون إنه جسم لطيف بإزاء هذا الجسم الكثيف : ولا يرون الفرق بين الروح والجسد إلا باللطافة والكثافة ، وبعضهم يعد الروح عرضا ، وبعض الأطباء يميل إلى هذا القول : وبعضهم يرى الدم روحا - وكلهم قنعوا بقصور نظرهم عــلى تخيلهم وما طلبوا القسم الثالث ، واعلم أن الأقسام ثلاثــة الجسم والعرض والجوهر الفرد ، فالروح الحيوانى جسم لطيف كأنه سراج مشتعل موضوع فى زجاجة القلب أعنى ذلك الشكل الصنوبرى المعلق فى الصدر ، والحياة ضوء السراج والدم دهنه والحس والحركة نوره ، والشهوة حرارته والغضب دخانه ، والقوة الطالبة للغــذاء الكائنة فى الكبد خادمه وحارسه ووكيله - وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات ، والإنسان هو جسم وآثاره أعراض ، وهذا الروح لايهتدى إلى العلم ولا يعرف

---

(١) روى البيهقى هذا الحديث النبوى الشريف .

طريق المصنوع ولا حق الصانع ، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن ، لو يزيد الدم ينطفى ذلك السراج بزيادة الحرارة ، ولو ينقص ينطفى بزيادة البرودة وانطفاؤه سبب موت البدن ، وليس خطاب البارى سبحانه ولا تكليف الشارع لهذا الروح لأن البهائم وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع ، والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائداً خاصاً به ، وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة ، وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض لأنه من أمر الله تعالى كما قال (قل الروح من أمر ربى) وقال (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وأمر البارى تعالى ليس بجسم ولا عرض بل قوة إلهية مثل العقل الاول واللوح والقلم ، وهى الجواهر المفردة المفارقة للمواد بل هى أضواء مجردة معقولة غير محسوسه ، والروح والقلب بلساننا من قبل تلك الجواهر ، ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت بل يفارق البدن وينتظر العود إليه فى يوم القيامة كما ورد فى الشرع . وقد صح فى العلوم الحكمية بالبراهين القاطعة ، والدلائل الواضحة أن الروح الناطق ليس بجسم ولا عرض بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد ، ونحن نستغنى عن تكرير البرهان وتعديد الدلائل لأنها مقررة مذكورة . فمن أراد تصحيحها فليرجع إلى الكتب اللائقة بذلك الفن . فأما فى طريقنا فلا يتأتى بالبرهان بل نعول على العيان ونعتمد على رؤية الإيمان ، ولما أضاف الله تعالى الروح إلى أمره وتارة إلى عزته فقال (فنفخت فيه من روحى) وقال (قل الروح

من أمر ربى) وقال (ونفخنا فيه من روحنا) والله تعالى أجل من أن يضيف إلى نفسه جسما أو عرضاً لخستهما وتغيرهما وسرعة زوالها وفسادهما ، والشارع صلى الله عليه وسلم قال « الأرواح جنود مجندة » وقال « أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر » والعرض لا يبقى بعد فناء الجوهر لأنه لا يقوم بذاته ، والجسم يقبل التحليل كما قبل التركيب من المادة والصورة كما هو مذكور فى الكتب ، فلما وجدنا هذه الآيات والأخبار والبراهين العقلية علمنا أن الروح جوهر فرد كامل حى بذاته يتولد منه صلاح الدين وفساده ، والروح الطبيعى والحيوانى وجميع القوى البدنية كلها من جنوده ، وأن هذا الجوهر يقبل صور المعلومات وحقائق والموجودات من غير اشتغال بأعيانها وأشخاصها . فإن النفس قادرة على أن تعلم حقيقة الإنسانية من غير أن ترى إنساناً كما أنها علمت الملائكة والشياطين ، وما احتاجت إلى رؤية أشخاصها إذ لا ينالها حواس أكثر الناس ، وقال قوم من المتصوفة إن للقلب عينا كما للجسد فيرى الظواهر بالعين الظاهرة ، ويرى الحقائق بعين العقل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا ولقلبه عينان ، وهما عينان يدرك بهما الغيب فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح عينى قلبه ليرى ما هو غائب عن بصره ، وهذا الروح لا يموت بموت البدن لأن الله تعالى يدعوه إلى بابه فيقول (ارجعى إلى ربك) وإنما هو يفارق ويعرض عن البدن ، فمن أعراضه تتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية فيسكن المتحرك فيقال لذلك السكون : موت ، وأهل الطريقة أعنى الصوفية يعتمدون

على الروح والقلب أكثر اعتماداً منهم على الشخص . وإذا كان الروح من أمر البارى تعـالى فيـكون فى البدن كالغريب ، ويكون وجهه إلى أصله ومرجعه . فينال الفوائد من جانب الأصل أكثر مما ينال من جهة الشخص إذا قوى ولم يدنس بأدناس الطبيعة . وإذا علمت أن الروح جوهر فرد وعلمت أن الجسد لابد له من المكان . والعرض لايبقى إلا بالجسم . فاعلم أن هذا الجوهر لا يحل فى محل ولا يسكن فى مكان وليس البدن مكان الروح ولا محل القلب بل البدن آلة الروح وأداة القلب ومركب النفس . والروح ذاته غير متصل بأجزاء البدن ولا منفصل عنه بل هو مقبل على البدن مفيد له مفيض عليه ، وأول ما يظهر نوره على الدماغ لأن الدماغ مظهره الخاص اتخذ من مقدمه حارساً . ومن وسطه وزيراً ومدبراً ، ومن آخره خزانة وخازناً ، ومن جميع الأجزاء رجالا وركبانا ، ومن الروح الحيوانى خادماً . ومن الطبيعى وكيلا ، ومن البدن مركباً ، ومن الدنيا ميداناً ، ومن الحياة بضاعة ومالا ، ومن الحركة تجارة ، ومن العلم ربحاً ، ومن الآخرة مقصداً ومرجعاً ، ومن الشرع طريقة ومنهجاً ، ومن النفس الأمارة حارساً ونقيباً ، ومن اللوامة منبهاً ، ومن الحواس جواسيس وأعواناً ومن الدين درعا ، ومن العقل أستاذاً ، ومن الحس تلميـذاً ، والرب سبحانه من وراء هذه كلها بالمرصاد ، والنفس بهذه الصفة مع هذه الآلة ما أقبلت على هـذا الشخص الكثيف ، وما اتصلت بذاته بل تنيله الإفادة ، ووجهها إلى بارئها وأمر بارئها بالاستفادة إلى أجل مسمى ، فالروح لايشتغل فى مدة هذا السفر إلا بطلب العلم لأن العلم يكون حليته فى دار الآخرة ، لأن حلية المال والبنين زينة حياة الدنيا ، فكما أن العين مشغولة برؤية المنظورات . والسمع مواظب على استماع الأصوات ، واللسان مستعد

بتركيب الأقوال ، والروح الحيوانى مريد اللذات الغضبية . والروح الطبيعى محب اللذات الأكل والشرب كذلك الروح المطمئنة أعنى القلب لا يريد إلا العلم ولا يرضى إلا به ويتعلم طول عمره . ويتحلى بالعلم جميع أيامه إلى وقت مفارقته ، ولو قبل أمراً آخر دون العـلم فإنما يقبل عليه لمصلحة البدن لا لمراد ذاته ومحبة أصله . فإذا علمت أحوال الروح ودوام بقائه وعشقه للعلم وشغفه به . فيجب عليك أن تعلم أصناف العلم فإنها كثيرة ونحن نحصيها بالاختصار .

فصل فى أصناف العلم وأقسامه

اعلم أن العلم على قسمين . أحدهما : شرعى ، والآخر : عقلى . وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها . وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

أما القسم الأول : وهو العلم الشرعى فينقسم إلى نوعين . أحدهما : فى الأصول وهو علم التوحيد . وهذا العلم ينظر فى ذات الله تعالى وصفاته القديمة ، وصفاته الفعلية . وصفاته الذاتية المتعددة بالأسامى على الوجه المذكور . وينظر أيضاً فى أحوال الأنبياء والأئمة من بعدهم والصحابة . وينظر فى أحوال الموت والحياة وفى أحوال القيامة والبعث والحشر والحساب ، ورؤية الله تعالى وأهل النظر فى هـذا العلم يتمسكون أولا بآيات الله تعالى من القرآن . ثم بأخبار الرسول

صلى الله عليه وسلم . ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية . وأخذوا مقدمات القياس الجدلي والعادى ولواحقهما من أصحاب المنطق الفلسفى . ووضعوا أكثر الألفاظ فى غير مواضعها ، ويعبرون فى عباراتهم بالجوهر والعرض والدليل والنظر والاستدلال والحجة ، ويختلف معنى كل لفظ من هذه الألفاظ عند كل قوم حتى إن الحكماء يعنون بالجوهر شيئا ، والصوفية يعنون شيئا آخر ، والمتكلمون شيئاً وعلى هذا المثال ، وليس المراد فى هذه الرسالة تحقيق معانى الألفاظ على حسب آراء القوم ، فلا نسرع فيها : وهؤلاء القوم مخصوصون بالكلام فى الأصول وعلم التوحيد ولقبهم المتكلمون فإن اسم الكلام اشتهر على علم التوحيد . ومن علم الأصول التفسير فإن القرآن من أعظم الأشياء وأبينها وأجلها وأعزها . وفيه من المشكلات الكثيرة مالا يحيط بها كل عقل إلا من أعطاه الله تعالى فهما فى كتابه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن آية من آيات القرآن إلا ولهـــا ظهر وبطن ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن » وفى رواية إلى تسعة . وقال صلى الله عليه وسلم « لكل حرف من حروف القرآن حد ولكل حد مطلع » والله تعالى أخبر فى القرآن عن جميع العلوم وجلى الموجودات وخفيها وصغيرها وكبيرها ومحسوسها ومعقولها . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى : (ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وإذا كان أمر القرآن أعظم الأمور فأى مفسر أدى حقه ، وأى عالم خرج عن عهدته . نعم كل

واحد من المفسرين شرع فى شرحه بمقدار طاقته . وخاض فى بيانه بحسب قوة عقله . وقدركنه علمه . فكلهم قالوا ، وبالحقيقة ماقالوا : وعلم القرآن يدل على علم الأصول والفروع والشرعى والعقلى . ويجب على المفسر أن ينظر فى القرآن من وجه اللغة ، ومن وجه الاستعارة ، ومن وجه تركب اللفظ ، ومن وجه مراتب النحو ، ومن وجه عادة العرب ، ومن وجه أمور الحكماء ، ومن وجه كلام المتصوفة حتى يقرب تفسيره إلى التحقيق ، ولو يقتصر على وجه واحد ويقنع فى البيان بفن واحد لم يخرج عن عهدة البيان ، ويتوجه عليه حجة الإيمان وإقامة البرهان .

ومن علم الأصول أيضاً علم الأخبار . فإن النبى صلى الله عليه وسلم أفصح العرب والعجم ، وكان معلماً يوحى إليه من قبل الله تعالى ، وكان عقله محيطا بجميع العلويات والسفليات ، فكل كلمة من كلماته بل لفظة من ألفاظه يوجد تحتها بحار الأسرار وكنوز الرموز ، فعلم أخباره ومعرفة أحاديثه أمر عظيم ، وخطب جليل . لايقدر أحد أن يحيط بعلم الكلام النبوى إلا أن يهذب نفسه بمتابعة الشارع ، ويزيل الاعوجاج عن قلبه بتقويم شرع النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أراد أن يتكلم فى تفسير القرآن وتأويل الأخبار ويصيب فى كلامه . فيجب عليه أولا تحصيل علم اللغة والتبحر فى فن النحو ، والرسوخ فى ميدان الإعراب ، والتصرف فى أصناف التصريف . فإن علم اللغة سلم ومرقاة إلى جميع العلوم ، ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم . فإن من أراد أن يصعد سطحا عليه تمهيد المرقاة

أولا ثم بعد ذلك يصعد . وعلم اللغة وسيلة عظيمة . ومرقاة كبيرة ، فلا يستغنى طالب العلم عن أحكام اللغة : فعلم اللغة أصل الأصول ، وأول علم اللغة معرفة الأدوات . وهى بمنزلة الكلمات المفردة ، وبعدها معرفة الأفعال مثل الثلاثى والرباعى وغيرهما . ويجب على اللغوى أن ينظر فى أشعار العرب . وأولاها وأتقنها اشعار الجاهلية . فإن فيها تنقيحاً للخاطر . وترويحاً للنفس ومع ذلك الشعر والأدوات والاسامى يجب تحصيل علم النحو فإنه لعلم اللغه بمنزلة ميزان القبان للذهب والفضة . والمنطق لعلم الحكمة ، والعروض للشعر ، والذراع للأثواب . والمكيال للحبوب ، وكل شيء لا يوزن بميزان لا يتبين فيه حقيقة الزيادة والنقصان . فعلم اللغة سبيل إلى علم التفسير والأخبار ، وعلم القرآن والأخبار دليل على علم التوحيد ، وعلم التوحيد هو الذى لا تنجو نفوس العباد إلا به ولا تتخلص من خوف المعاد إلا به ، فهذا تفصيل علم الاصول .

(النوع الثانى) من العلم الشرعى هو علم الفروع . وذلك أن العلم إما أن يكون علميا ، وإما أن يكون عمليا ، وعلم الاصول هو العلمى ، وعلم الفروع هو العملى ، وهذا العلم العملى يشتمل على ثلاثة حقوق (أولها) حق الله تعالى وهو أركان العبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج والجهاد والاذكار والأعياد والجمعة وزوائدها من النوافل والفرائض (وثانيها) حق العباد وهو أبواب العادات وهو يجرى فى وجهين . أحدهما : المعاملة . مثل البيع والشركة والهبة والقرض

والدين والقصاص وجميع أبواب الديات ، والوجه الثانى : المعاقدة ، مثل النكاح والطلاق والعتق والرق والفرائض ولواحقها ، ويطلق اسم الفقه على هذين الحقين . وعلم الفقه علم شريف مفيد عام ضرورى لا يستغنى الناس عنه لعموم الضرورة إليه (وثالثها حق النفس) . وهو علم الأخلاق . والأخلاق إما مذمومة ويجب رفضها وقطعها . وإما محمودة ويجب تحصيلها وتحلية النفوس بها . والأخلاق المذمومة والأوصاف المحمودة مشهورة فى كتاب الله تعالى وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم : من تخلق بواحد منها دخل الجنة .

وأما القسم الثانى : من العلم فهو العلم العقلى وهو علم معضل مشكل يقع فيه خطأ وصواب . وهو موضوع فى ثلاث مراتب (المرتبة الأولى) وهو أول المراتب العلم الرياضى والمنطقى . أما الرياضى فمنه الحساب وينظر فى العدد والهندسة وهى علم المقادير والأشكال والهيئة أعنى علم الأفلاك والنجوم وأقاليم الأرض وما يتصل بها . ويتفرع عنه علم النجوم وأحكام المواليد والطوالع . ومنه علم المسبق الناظر فى نسب الآثار . وأما المنطق فينظر فى طريق الحد والرسم فى الأشياء التى تدرك بالتصور . وينظر من طريق القياس والبرهان فى العلوم التى تنال بالتصديق . ويدور علم المنطق على هذه القاعدة يبتدى بالمفردات ثم بالمركبات . ثم بالقضايا . ثم بالقياس ، ثم بأقسام القياس ، ثم مطلب البرهان ، وهو نهاية علم المنطق (والمرتبة الثانية (وهو أوسطها العلم الطبيعى ، وصاحبه ينظر

فى الجسم المطلق ، وأركان العــالم وفى الجواهر والأعراض ، وفى الحركة والسكون ، وفى أحوال السموات والأشياء الفعلية والانفعالية ، ويتولد من هـذا العـلم النظر فى أحوال مراتب الموجودات بأقسام النفوس والأمزجة ، وكمية الحواس ، وكيفية إدراكها لمحسوساتها ، ثم يؤدى إلى النظر فى علم الطب وهو علم الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات وما يتعلق بها ، ومن فروعه علم الآثار العلوية . وعلم المعــادن ، ومعرفة خواص الأشياء ، وينتهى إلى علم صنعة الكيمياء وهى معالجة الأجساد المريضة فى أجواف المعادن . (والمرتبة الثالثة) وهى العليا هى النظر فى الموجود ، ثم تقسيمه إلى الواجب والممكن ، ثم النظــر فى الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه وترتب ظهور الموجودات عنه ، ثم النظر فى العلويات والجواهر المفردة والعقول المفارقة ، والنفوس الكاملة ، ثم النظر فى أحوال الملائكة والشياطين ، وينتهى إلى علم النبوات وأمر المعجزات وأحوال الكرامات ، والنظر فى أحوال النفوس المقدسة وحال النوم واليقظة ومقامات الرؤيا ، ومن فروعه علم الطلسمات والنيرنجات وما يتعلق بها ، ولهـذه العلوم تفاصيل وأعراض ومراتب ، تحتاج إلى شرح جلى ببرهان بهى ولكن الاقتصار أولى .

فصل

اعلم أن العلم العقلى مفرد بذاته ويتولد منه علم مركب يوجد فيه جميع أحوال العلمين المفردين ، وذلك العلم المركب علم الصوفية ، وطريقة أحوالهم ، فإن لهم علماً خاصاً بطريقة واضحة بمجموعة من

العلمين ، وعلمهم يشتمل على الحال ، والوقت والسماع ، والوجد والشوق ، والسكر ، والصحو والإثبات والمحو ، والفقر والفناء ، والولاية والإرادة ، والشيخ والمريد وما يتعلق بأحوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات : ونحن نتكلم فى هذه العلوم الثلاثة فى كتاب خاص إن شاء الله تعالى ، والآن ليس قصدنا إلا تعديد العلوم وأصنافها فى هذه الرسالة ، وقد اختصرناها وعددناها على طريق الاختصار والإيجاز ، ومن أراد الزيادة وشرح هذه العلوم فليرجع إلى مطالعة الكتب ، ولما انتهى الكلام فى بيان تعديد أصناف العلوم ، فاعلم أنت يقينا أن كل فن من هذه الفنون ، وكل علم من هذه العلوم ، يستدعى عدة شرائط لينتقش فى نفوس الطالبين ، فبعد تعديد العلوم يجب عليك ان تعرف طرق التحصيل فإن لتحصيل العلم طرقاً معينة نحن نفصلها (إن شاء الله) .

فصل فى بيان طرق التحصيل للعلوم

اعلم أن العلم الإنسانى يحصل من طريقين . أحدهما : التعلم الإنسانى ، والثانى : التعلم الربانى .

أما الطريق الأول : فطريق معهود ، ومسلك محسوس ، يقربه جميع العقلاء — وأما التعلم الربانى فيكون على وجهين ، أحدهما : من خارج وهو التحصيل بالتعلم ، والآخر : من داخل وهو الاشتغال بالتفكر ، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم فى الظاهر ، فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئى ، والتفكر استفادة النفس من

النفس الكلى ، والنفس الكلى أشد تأثيراً وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء ، والعلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة كالبذر فى الأرض ، والجوهر فى قعر البحر . أو فى قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشىء من القوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل : فنفس المتعلم تتشبه بنفس المعلم وتتقرب إليه بالنسبة فالعالم بالإفادة كالزارع والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذى هو بالقوة كالبذر ، والذى بالفعل كالنبات فإذا كملت نفس المتعلم تكون كالشجرة المثمرة أو كالجوهر الخارج من قعر البحر ، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة ، وتحمل المشقة والتعب وطلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة مالا تجد نفس الجامد بتعلم سنة ، فإذن بعض الناس يحصلون العلوم بالتعلم وبعضهم بالتفكر ، والتعلم يحتاج إلى التفكر ، فإن الإنسان لايقدر أن يتعلم جميع الأشياء الجزئيات والكليات وجميع المعلومات ، بل يتعلم شيئا ويستخرج بالتفكر من العلوم شيئا ، وأكثر العلوم النظرية والصنائع العملية استخرجها نفوس الحكماء بصفاء ذهنهم وقوة فكرهم وحدة حدسهم من غير زيادة تعلم وتحصيل ، ولولا أن الإنسان يستخرج بالتفكر شيئا من معلومه الأول لكان يطول الأمر على الناس ولما كانت تزول ظلمة الجهل عن القلوب لأن النفس

لاتقدر أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية بالتعلم بل بعضها بالتحصيل وبعضها بالنظر كما يرى عادات الناس . وبعضها يستخرج من ضميره بصفاء فكره ، وعلى هذا جرت عادة العلماء وتمهدت قواعد العلوم . حتى أن المهندس لايتعلم جميع مايحتاج إليه فى طول عمره بل يتعلم كليات علمه وموضاعاته ، ثم بعـــد ذلك يستخرج ويقيس — وكذلك الطبيب لايقدر أن يتعلم جزئيات أدواء الأشخاص وأدويتهم بل يتفكر فى معلوماته الكلية . ويعالج كل شخص بحسب مزاجه — وكذلك المنجم يتعلم كليات النجوم ثم يتفكر ويحكم بالأحكام المختلفة — وكذلك الفقيه والاديب — وهكذا إلى بدائع الصنائع فواحد وضع آلة الضرب وهو العود بتفكره ، وآخر استخرج من تلك الآلة آلة أخرى — وكذلك جميع الصنائع البدنية والنفسانية أوائلها محصلة من التعلم والبواقى مستخرجة من التفكر ، وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكر وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب فينشرح قلبه وتفتح بصيرته فيخرج مافى نفسه من القوة إلى الفعل من غير زيادة طلب وطول تعب .

(الطريق الثانى) وهو التعليم الربانى عـــلى وجهين (الأول) إلقاء الوحى وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها وتتمسك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره ، والله تعالى بحسن

عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كلياً . وينظر إليها نظراً إليها ويتخذ منها لوحاً . ومن النفس الكلى قلما وينقش فيها جميع علومه ، ويصير العقل الكلى كالمعلم . والنفس القدسية كالمتعلم ، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر ، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (وعلمك مالم تكن تعلم) . الآية . فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة ، وبيان هـــذا يوجد فى قصة آدم عليه السلام والملائكة ، فإنهم تعلموا طول عمرهم . وحصلوا بفنون الطرق كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات ، وآدم عليه السلام ما كان عالماً لأنه ما تعلم وما رأى معلماً فتفاخرت الملائكة وتجبروا وتكبروا فقالوا (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ونعلم حقائق الأشيـــاء ، فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه ، وأخرج قلبه عن جملة المكونات وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى فعلمه جميع الأسماء (ثم عرضهم على الملائكة) فقال (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فصغر حالهم عند آدم . وقـــل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا فى بحر العجز (وقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا) فقال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) فأنبأهم آدم عليه السلام عدة مكنونات العلم ومستترات الأمر ، فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيبى المتولد عن الوحى أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة ، وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحق الرسل ، وأغلق الله باب الوحى من عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين ،

وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم وكان يقول « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقال لقومه . انا أعلمكم وأخشاكم من الله تعالى ، وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى لأنه حصل عن التعلم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني . قال تعالى (علمه شديد القوى) .

(الوجه الثانى) هو الإلهام ، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانيـة على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها والإلهام أثر الوحى فإن الوحى هو تصريح الأمر الغيبي والإلهام هو تعريضه والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علما نبويا والذى يحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنيا والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى ، وإنمـا هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف وذلك ان العلوم كلهـا حاصلة معلومه فى جوهر النفس الكليه الأولى الذى هو فى الجواهر المفارقه الاوليـة المحضة بالنسبه إلى العقل الاول كنسبه حواء إلى ادم عليه السـلام وقد بين ان العقل الكلى أشرف وأكمل واقوى واقرب إلى البارى تعالى من النفس الكليه . والنفس الكليه أعز وألطف واشرف من سائر المخلوقات فمن إفاضة العقـل الكلى يتولد الإلهـام ومن إشراق النفس الكليه يتولد الإلهام فالوحى حليه الأنبيـاء والإلهـام زينة الأوليـاء . فأما علم الوحى فـكما أن النفس دون العقـل فالولى دون النبي فـكذلك الإلهـام دون الوحى فهو ضعيف بنسبـة الوحى

قوى بإضافة الرؤيا والعلم علم الأنبياء والأولياء . فأما علم الوحى فخاص بالرسل موقوف عليهم كما كان لآدم وموسى عليهما السلام وإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهم من الرسل ، وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول ، والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب ، والعلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه ، فقال (وعلمناه من لدنا علما) وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه (أدخلت لسانى فى فمى فانفتح فى قلبى ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب ، وقال : لو وضعت لى وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهل الإنجيل بإنجيلهم ولأهل القرآن بقرآنهم) وهذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنسانى ، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدنى ، وقال أيضاً رضى الله عنه يحكى عن عهد موسى عليه السلام أن شرح كتابه أربعون حملا فلو يأذن الله فى شرح معانى الفاتحة لأشرع فيها حتى تبلغ مثل ذلك يعنى أربعين وقرا ـ وهذه الكثرة والسعة والانفتاح فى العلم لا يكون إلا لدنيا إلهياً سماوياً . فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التى هى اللوح ، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معانى تلك المكنونات فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن يشاء من عباده وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنى

وما لم يبلغ الإنسان هـــذه المرتبة لا يكون حكيما لأن الحكمة من مواهب الله تعالى (يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدنى مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيراً ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلا .

واعلم أن الوحى إذا انقطع . وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة . فأما باب الإلهام فلا ينسد ، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير — وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم فى هـذه الوساوس وانهماكهم فى هذه الشهوات . فالله تعالى أغلق باب الوحى وهو آية العباد وفتح باب الإلهام رحمة وهيأ الأمور . ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب .

فصل فى مراتب النفوس فى تحصيل العلوم

اعلم أن العلوم مركوزة فى جميع النفوس الإنسانية وكلها قابلة لجميع العلوم . وإنما يفوت نفساً من النفوس حظها منه بسبب طارىء وعارض يطرأ عليها من خارج — كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « خلق الناس حنفاء فاختالتهم الشياطين » وقال صلى الله عليـــه وسلم

وكل مولود يولد على الفطرة ، الحديث ، فالنفس الناطقة الانسانية أهل لاشراق النفس الكلية عليها ومستعدة لقبول الصور المعقولة عنها بقوة طهارتها الأصلية وصفاتها ولكن يمرض بعضها فى هذه الدنيا . ويمتنع عن إدراك الحقائق بأمراض مختلفة وأعراض شتى ويبقى بعضها على الصحة الأصلية بلا مرض وفساد . يقبل أبداً مادامت حية ، والنفوس الصحيحة هى النفوس النبوية القابلة للوحى والتأييد القادرة على اظهار المعجزة والتصرف فى عالم الكون والفساد فإن تلك النفوس باقية على الصحة الأصلية . وما تغيرت أمزجتها بفساد الأمراض وعلل الأعراض فصار الانبياء أطباء النفوس ودعاة الخلق إلى صحة الفطرة .

وأما النفوس المريضة فى هذه الدنيا الدنيئة فصارت على مراتب بعضهم تأثر بمرض المنزل تأثراً ضعيفاً . ودق غمام النسيان فى خواطرهم فيشتغلون بالتعلم . ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة ، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر . وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتعلم ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة . وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ، ويشتغلون بالتحصيل والتصحيح جميع أيامهم ، ولا يفهمون شيئاً لفساد أمزجتهم ، لأن المزاج إذا فسد لايقبل العلاج ، وبعضهم يتذكرون وينسون ويرتاضون ويذلون أنفسهم ويجدون نورا قليلا واشراقا ضعيفا ، وهذا التفاوت انما ظهر من اقبال النفوس على الدنيا

واستغراقا بحسب قوتها وضعفها كالصحيح إذا مرض . والمريض إذا صح ، وهذه العقدة إذا انحلت تقر النفوس بوجود العلم اللدنى وتعلم أنها كانت عالمة فى أول الفطرة وصافية فى ابتداء الاختراع ، وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف ، والإقامة فى هذا المنزل الكدر والمحل المظلم وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم . ولا إبداع العقل المفقود ، بل إعادتها العلم الأصلى الغريزى وإزالة طريان المرض بإقبالها على زينة الجسد وتمهيد قاعدته ونظم أساسه ، والأب المحب المشفق على ولده إذا أقبل على رعاية الولد ، واشتغل بمهماته ينسى جميع الأمور ، ويكتفى بأمر واحد وهو أمر الولد ، فالنفس لشدة شغفها وشفقتها أقبلت على هذا الهيكل واشتغلت بعمارته ورعايته والاهتمام بمصالحه ، واستغرقت فى بحر الطبيعة بسبب ضعفها وجزئيتها فاحتاجت فى أثناء العمر إلى التعلم طلبا لتذكار ما قد نسيت ، وطمعا فى وجدان ما قد فقدت وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما فى ضميرها إلى الفعل طلبا لتكميل ذاتها ونيل سعادتها ، وإذا كانت النفوس ضعيفة لا تهتدى إلى حقيقة جوهريتها تتمسك وتعتصم بمعلم مشفق عالم وتستغيث به ليعينها على طلب مرادها ومأمولها كالمريض الذى يكون جاهلا بمعالجته ويعلم أن الصحة الشريفة محمودة مطلوبة . فيرجع إلى طبيب مشفق ، ويعرض حاله عليه . ويأوى إليه ليعالجه . ويزيل عنه مرضه وقد رأينا عالماً يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر فتعرض نفسه عن جميع العلوم وينسى معلوماته وتلتبس عليه ويستتر فى حافظته وذاكرته جميع

ما حصل فى سابق عمره وماضى أيامه . فإذا صح ، عاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه وترجع النفس إلى معلوماتها . فتتذكر ما قد نسيت فى أيام المرض ، فعلمنا أن العلوم ما فنيت وإنما نسيت وفرق بين المحو والنسيان بالناس فإن المحو فناء النقوش والرسوم . والنسيان التباس النقوش فيكون كالغمام أو السحاب الساتر لنور الشمس عن أبصار الناظرين لا كالغروب الذى هو انتقال الشمس من فوق الأرض إلى أسفل . فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت فى أول الفطرة وعرفت فى بدء الطهارة . فإذا عرفت السبب والمراد من التعلم وحقيقة النفس وجوهرها — فاعلم أن النفس المريضة تحتاج إلى التعلم وإنفاق العمر فى تحصيل العلوم ، فأما النفس التى يخف مرضها وتكون علتها ضعيفة وشرها دقيقاً وغمامها رقيقاً ومزاجها صحيحاً فلا تحتاج إلى زيادة تعلم وطول تعب بل يكفيها أدنى نظر وتفكر لأنها ترجع به إلى أصلها ، وتقبل على بدايتها وحقيقتها ، وتطلع على مخفياتها فيخرج ما فيها من القوة إلى الفعل ويصير ما هو مركوز فيها حلية لها فيتم أمرها ويكمل شأنها وتعلم أكثر الأشياء فى أقل الأيام وتعبر عن المعلومات بحسن النظام وتصير عالمة كاملة متكلمة تستضىء بإقبال على النفس الكلية وتفيض باستقبال على النفس الجزئية وتتشبه من طريق العشق بالأصل . وتقطع عرق الحسد وأصل الحقد وتعرض عن فضول الدنيا وزخارفها — وإذا وصلت إلى هذه المرتبة فقد علمت ونجت وفازت . فهذا هو المطلوب لجميع الناس .

فصل فى حقيقة العلم اللدنى وأسباب حصوله

أعلم أن العلم اللدنى وهو سريان نور الإلهام يكون بعد التسوية كما قال الله تعالى (ونفس وماسواها) وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه (أحدها) تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها (والثانى) الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة فإن النبى صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحقيقة، فقال « من عمل بما علم أورثه الله العلم ما لم يعلم » وقال صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (والثالث) التفكر فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر فى معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب كالتاجر الذى يتصرف فى ماله بشرط التصرف ينفتح عليه أبواب الربح، وإذا سلك طريق الخطأ يقع فى مهالك الخسران، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب، وتنفتح روزنة من عالم الغيب فى قلبه فيصير عالماً كاملا عاقلا ملهما مؤيداً كما قال صلى الله عليه وسلم « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » وشرائط التفكر نحصيها فى رسالة أخرى إذ بيان التفكر وكيفيته وحقيقته أمر مبهم يحتاج إلى زيادة شرح وتفسير بعون الله تعالى. والآن نختم هذه الرسالة. فإن فى هذه الكلمات كفاية لأهلها « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » والله ولى المؤمنين وعليه التكلان، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وبه ثقتى فى كل آن وحين. والحمد لله رب العالمين.

تمت الرسالة اللدنية : ويليها فيصل التفرقة

بسم الله الرحمن الرحيم

فيصل التفرقة

قال الإمام العالم العامل أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه : أحمد الله تعالى استسلاما لعزته ، واستتماماً لنعمته ، واستغناماً لتوفيقه ومعونته وطاعته . واستعصاماً من خذلانه ومعصيته ، واستدراراً لسوابغ نعمته وأصلى على محمد عبده ورسوله وخير خليقته ، انقياداً لنبوته ، واستجلابا لشفاعته ، وقضاء لحق رسالته ، واعتصاماً بيمين سريرته ونقيبته ، وعلى آله وأصحابه وعترته .

أما بعد : فإنى رأيتك أيها الأخ المشفق ، والصديق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا : إنه مجنون من المجانين . وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا إنه أساطير

الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم وتطمع فى إلحامهم ، فتطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع - أما سمعت ما قيل :

كل العداة قـــد ترجى سلامتها   إلا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس . لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس ، أو ما سمعت قوله تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وقوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـذا إلا سحر مبين) وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) واعلم أن الفكر والإيمان وحدهما ، والحق والضلال وسرهما ، لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما . بل إنما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة ، وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار ، يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار . وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هو اهم ،

ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم . وشريعتهم رعونتهم . وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم اغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ، أبإلهام إلهى ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها أم بكمال علمى ، وإنما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ؟ هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهوينا . فاشتغل أنت بشأنك ولا تضيع فيهم بقية زمانك (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) .

فصل

فأما أنت إن أردت أن تنتزع هذه الحسكة من صدرك ، وصدر من هو فى حالك ، ممن لا تحركه غواية الحسود ، ولا تقيده عماية التقليد بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة إشكال اثارها فكر ، وهيجها نظر ، فخاطب نفسك وصاحبك وطالبه بحد الكفر فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الاشعرى أو مذهب المعتزلى او مذهب الحنبلى او غيرهم فاعلم أنه غر بليد . قد قيده التقليد فهو اعمى من العميان ، فلا تضيع بإصلاحه الزمان ، وناهيك حجة فى إفحامه ، مقابلة دعواه بدعوى خصومه . إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلا : وإن مال صاحبه يميل من سائر المذاهب إلى الاشعرى .

ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلى فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وفقاً عليه حتى قضى بكفر الباقلانى إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس هو وصفاً لله تعالى زائداً على الذات ولم صار الباقلانى أولى بالكفر بمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفته الباقلانى ؟ ولم صار الحق وفقاً على أحدهما دون الثانى ؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان ؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه ! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم ؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم ؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة ؟ وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً أنهما جميعاً متوافقان على دوام الوجود والخلاف فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات ، وإنما يخالف الأشعرى فى أنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة فما الفرق بين الخلافين ، وأى مطلب أجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى فى النظر فى نفيها وإثباتها فإن قال إنما أكفر المعتزلى لأنه يزعم أن الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة وهذه صفات

مختلفة بالحد والحقيقة ، والحقائق المختلفة تستحيل أن توصف بالاتحاد أو تقوم مقامها الذات الواحدة فما باله لا يستبعد من الأشعرى قوله إن الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحدا هو توراة وإنجيل وزبور وقرآن وهو أمر ونهى وخبر واستخبار — وهذه حقائق مختلفة وكيف لاوحد الخبر ما يتطرق إليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الأمر والنهى فكيف تكون حقيقة واحـــدة يتطرق إليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق فيجتمع النفى والإثبات على شىء واحد فإن تخبط فى جواب هذا أو عجز عن كشف الغطاء فيه : فاعلم إنه ليس من أهل النظر وإنما هو مقلد ، وشرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ، ولو كان أهلا له كان مستتبعاً لاتابعا ، وإماما لا مأموماً ، فإن خاض المقلد فى المحاجة فذلك منه فضول والمشتغل به صار كضارب فى حديد بارد وطالب اصلاح الفاسد — وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر — ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب . أما الكفر فلأنه نزله منزلة النبى المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته ، وأما التناقض فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وأن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت وكل ما رأيته حجة وأى فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبى وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جميعاً وهل هذا إلا التناقض .

فصل

لعلك تشتهى أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين : فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكنى أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق ، وتطويل اللسان فى أهل الإسلام وإن اختلفت طرقهم ماداموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول :

الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى شىء مما جاء به والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به ، فاليهودى والنصرانى كافران لتكذيبهما للرسول عليه الصلاة والسلام ، والبرهمى كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مع رسولنا المرسل سائر الرسل — وهذا لأن الكفر حكم شرعى كالرق والحرية مثلا إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود فى النار ومدركه شرعى فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص . وقد وردت النصوص فى اليهود والنصارى ، والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون فإنهم مكذبون للرسول فكل كافر مكذب للرسول ، وكل مكذب فهو كافر — فهذه هى العلامة المطردة المنعكسة .

فصل

اعلم أن الذى ذكرناه مع ظهوره تحته غور بل تحته كل الغور لأن كل فرقة تكفر مخالفها وتنسبه إلى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام . فالحنبلى يكفر الاشعرى زاعما أنه كذب الرسول فى إثبات الفوق لله تعالى وفى الاستواء على العرش ، والأشعرى يكفره زاعما أنه مشبه وكذب الرسول فى أنه ليس كمثله شىء ، والاشعرى يكفر المعتزلى زاعما أنه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى إثبات العلم والقدرة والصفات له ، والمعتزلى يكفر الاشعرى زاعما ان إثبات الصفات تكثير للقدماء وتكذيب للرسول فى التوحيد ، ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضا .

وأقول : التصديق إنما يتطرق إلى الخبر بل إلى المخبر ، وحقيقة الاعتراف بوجود ما اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا أن الوجود خمس مراتب ولاجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب فإن الوجود ذاتى وحسى وخيالى وعقلى وشبهى . فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق . فلنشرح هذه الاصناف الخمسة ولنذكر مثالها فى التاويلات .

أما الوجود الذاتى فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحس والعقل ولكن يأخذ الحس والعقل عنه صورة ويسمى أخذه إدراكا

وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل هو المعروف الذي لا يعرف الأكثرون للوجود معنى سواه .

وأما الوجود الحسي : فهو ما يتمثل في القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجوداً في الحس ويختص به الحاس ، ولا يشاركه غيره — وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض المتيقظ إذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسه بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء في اليقظة والصحة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة ، وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر الغيب في اليقظة ما يتلقاه غيرهم في النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم كما قال تعالى (فتمثل لها بشراً سوياً) وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام كثيراً ولكن ما رآه في صورته إلا مرتين وكان يراه في صور مختلفة يتمثل بها وكما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقد قال « من رآني في النوم فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم بل هي على سبيل وجود صورته في الحس النائم فقط ، وسبب ذلك وسره طويل ، وقد شرحناه في بعض الكتب فإن كنت لا تصدق به فصدق عينك فإنك تأخذ قبساً من نار كأنه نقطة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطاً من نار وتحركه حركة مستديرة فتراه دائرة من نار والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان في حسك لا في الخارج عن

حسك لأن الموجود فى الخارج هى نقطة فى كل حال ، وإنما تصير خطا فى أوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجوداً فى حالة واحدة وهو ثابت فى مشاهدتك فى حالة واحدة .

وأما الوجود الخيالى : فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك فإنك تقدر على أن تخترع فى خيالك صورة فيل وفرس وإن كنت مغمضاً عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته فى دماغك لا فى الخارج .

وأما الوجود العقلى : فهو أن يكون للشيء روح وحقيقة ومعنى فيتلقى العقل مجرد معناه دون أن يثبت صورته فى خيال أو حس أو خارج كاليد مثلا فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهى القدرة على البطش ، والقدرة على البطش هى اليد العقلية وللقلم صورة ولكن حقيقته ما تنقش به العلوم وهذا يتلقاه العقل من غير أن يكون مقروناً بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية .

وأما الوجود الشبهى : فهو أن لا يكون نفس الشيء موجوداً لا بصورته ولا بحقيقته لا فى الخارج ولا فى الحس ولا فى الخيال ولا فى العقل ولكن يكون الموجود شيئاً آخر يشبهه فى خاصة من خواصه ، وصفة من صفاته ، وستفهم هذا إذا ذكرت لك مثاله فى التأويلات — فهذه مراتب وجود الأشياء .

فصل

اسمع الآن أمثلة هذه الدرجات فى التأويلات . أما الوجود الذاتى فلا يحتاج إلى مثال وهو الذى يجرى على الظاهر ولا يتأول وهو الوجود المطلق الحقيقى وذلك كإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن العرش والكرسى والسموات السبع فإنه يجرى على ظاهره ولا يتأول إذ هذه أجسام موجودة فى أنفسها أدركت بالحس والخيال أو لم تدرك .

وأما الوجود الحسى فأمثلته فى التأويلات كثيرة وأقنع منها بمثالين :

أحدهما : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار » فإن من قام عنده البرهان على أن الموت عرض أو عدم عرض ، وأن قلب العرض جسما مستحيل غير مقدور ينزل الخبر على أن أهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون أنه الموت ويكون ذلك موجودا فى حسهم لا فى الخارج ويكون سببا لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك إذ المذبوح ميئوس منه . ومن لم يقم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد أن نفس الموت ينقلب كبشا فى ذاته ويذبح .

المثال الثانى : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرضت على الجنة فى عرض هذا الحائط » فمن قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل وأن الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على أن نفس الجنة لم تنتقل إلى الحائط لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع أن يشاهد مثال شىء كبير فى جرم صغير كما تشاهد

السماء فى مرآة صغيرة ويكون ذلك إبصاراً مفارقاً لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء فى المرآة وبين أن تغمض عينيك فتدرك صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل .

وأما الوجود الخيالى فمثاله قوله صلى الله عليه وسلم « كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه عباءتان قطوانيتان يلبى وتجيبه الجبال والله تعالى يقول له لبيك يا يونس » والظاهر أن هذا إنباء عن تمثل الصورة فى خياله إذ كان وجود هذه الحالة سابقاً على وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انعدم ذلك فلم يكن موجوداً فى الحال ، ولا يبعد أن يقال أيضاً ، تمثل هذا فى حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور ولكن قوله كأنى أنظر يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر ، والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة ، وعلى الجملة فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيتصور أن يتمثل فى محل الإبصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل .

وأما الوجود العقلى فأمثلته كثيرة فلنقنع منها بمثالين : أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم « آخر من يخرج من النار يعطى من الجنة عشرة أمثال هذه الدنيا » فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسى والخيالى ، ثم قد يتعجب فيقول : إن الجنة فى السماء كما دلت عليه ظواهر الأخبار فكيف تتسع السماء لعشرة أمثال الدنيا والسماء أيضاً من الدنيا ، وقد يقطع المتأول هذا التعجب فيقول المراد به تفاوت معنوى عقلى لا حسى ولا خيالى كما يقال

مثلا هذه الجوهرة أضعاف الفرس أى فى روح المالية ، ومعناها المدرك دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل .

المثال الثانى : قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعـــالى خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً » فقد أثبت لله تعالى يداً ومن قام عنده البرهان على استحالة يد لله تعالى هى جارحة محسوسة أو متخيلة فإنه يثبت لله سبحانه يداً روحانية عقليـة أعنى أنه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صـورتها . إن روح اليد ومعنـاها ما به يبطش ويفعل ويعطى ويمنع والله تعالى يعطى ويمنع بواسطة ملائـكته كما قال عليـــه الصلاة والسلام « أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطى وبك أمنع » ، ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضاً كما يعتقده المتـكلمون إذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق بل يكون عبـارة عن ذات ملك من الملائـكة يسمى عقلا من حيث يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعلم ، وربما يسمى قلماً باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الأنبياء والأوليـاء وسائر الملائكة وحياً وإلهاماً فإنه قـد ورد فى حديث آخر (إن أول ما خلق الله تعالى القلم) فإن لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان ، ويجوز أن يكون لشىء واحد أسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى عقلا باعتبار ذاته وملكا باعتبار نسبته إلى الله تعالى فى كونه واسطة بينه وبين الخلق ، وقلماً باعتبار إضافته إلى ما يصدر منه من نقش العلوم بالإلهام والوحى كما يسمى جبريل روحاً باعتبار ذاته وأميناً باعتبار ما أودع من الأسرار ، وذا مرة باعتبار

قدرته ، وشديد القوى باعتبار كمال قوته ، ومكيناً عنــد ذى العرش باعتبار قرب منزلته ، ومطاعا باعتبار كونه متبوعاً فى حق بعض الملائكة ، وهذا القائل يكون قد أثبت قلماً ويداً عقلياً لا حسياً وخيالياً وكذلك من ذهب إلى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى إما القــدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون .

وأما الوجود الشبهى فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغــير ذلك مما ورد فى حق الله تعالى فإن الغضب مثلا حقيقته أنه غليان دم القلب لإرادة التشفى وهذا لا ينفك عن نقصان وألم ، فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتاً ذاتياً وحسياً وخيالياً وعقلياً نزله على ثبوت صفة أخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كإرادة العقاب ، والإرادة لا تناسب الغضب فى حقيقة ذاته ولكن فى صفة من الصفات وتقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الإيلام ـــ فهذه درجات التأويلات .

فصل

اعلم أن كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين ، وإنما التكذيب ان ينفى جميع هذه المعانى ، ويزعم أن ما قاله لا معنى له وإنما هو كذب محض وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة ، ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير إليه وكيف يلزم الكفر بالتأويل ، وما من فريق من أهل الإسلام إوهلا و

مضطر إليه . فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ،
وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة
هو الوجود العقلي والوجود الشبهي ، والحنبلي مضطر إليه وقائل به
فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل
رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط ، أحدها : قوله صلى الله عليه
وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » . والثانى : قوله صلى الله عليه
وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » . والثالث : قوله صلى الله
عليه وسلم « إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمين » فانظر الآن كيف
أول هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهره فيقول اليمين تقبل
فى العادة تقرباً إلى صاحبها ، والحجر الأسود يقبل أيضاً تقرباً إلى الله
تعالى فهو مثل اليمين لا فى ذاته ولا فى صفات ذاته ولكن فى عارض
من عوارضه فسمى لذلك يميناً — وهذا الوجود هو الذى سميناه
الوجود الشبهى وهو أبعد وجوه التأويل ، فانظر كيف اضطر إليه
أبعد الناس عن التأويل — وكذلك لما استحال عنده وجود الأصبعين
لله تعالى حسا إذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه أصبعين فتأوله على
روح الأصبعين وهى الأصبع العقلية الروحانية أعنى أن روح الأصبع
ما به يتيسر تقلب الأشياء . وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان
وبهما يقلب الله تعالى القلوب فكنى بالأصبعين عنهما وإنما اقتصر أحمد
ابن حنبل رضى الله عنه على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر
عنده الاستحالة إلا فى هذا القدر لأنه لم يكن ممعنا فى النظر العقلى

ولو أمعن لظهر له ذلك فى الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله ، والأشعرى والمعتزلى لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة فى أمور الآخرة الأشعرية وفقهم الله فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً ، والمعتزلة أشد منهم توغلا فى التأويلات وهم مع هـذا ـ أعنى الأشعرية ـ يضطرون أيضا إلى تأويل أمور كما ذكرناه من قوله إنه يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح وكما ورد من وزن الأعمال بالميزان فإن الأشعرى أول وزن الأعمال فقال توزن صحائف الأعمال ويخلق الله فيها أوزانا بقدر درجات الأعمال ـ وهذا رد إلى الوجود الشبهى البعيد فإن الصحائف أجسام كتبت فيها رقوم تدل بالاصطلاح على أعمال هى أعراض فليس الموزون إذاً العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل . والمعتزلى تأول نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله وهو أبعد عن التعسف فى التأويل بوزن الصحائف وليس الغرض تصحيح أحد التأويلين بل تعلم أن كل فريق وإن بالغ فى ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل إلا أن يجاوز الحـــد فى الغباوة والتجاهل فيقول الحجر الأسود يمين تحقيقا ، والموت وإن كان عرضا فيستحيل فينقلب كبشا بطريق الانقلاب ، والأعمال وإن كانت أعراضاً وقد عدمت فتنتقل إلى الميزان ويكون فيها أعراض هى الثقل ، ومن ينتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقه العقل .

فصل

فاسمع الآن قانون التأويل : فقد علمت اتفاق الفرق على هذه الدرجات الخمس فى التأويل وإن شيئاً من ذلك ليس من حيز التكذيب واتفقوا أيضاً على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر ، والظاهر الأول هو الوجود الذاتى فانه إذا ثبت تضمن الجمع . فإن تعذر فالوجود الحسى فانه إن ثبت تضمن مابعده . فإن تعذر فالوجود الخيالى أو العقلى . وإن تعذر فالوجود الشبهى المجازى ولا رخصة للعدول عن درجة إلى مادونها إلا بضرورة البرهان فيرجع الاختلاف على التحقيق إلى البراهين : إذ يقول الحنبلى لا برهان على استحالة اختصاص البارى بجهة فوق . ويقول الأشعرى لا برهان على استحالة الرؤية . وكأن كل واحد لايرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلا قاطعا . وكيف ماكان فلا ينبغى أن يكفر كل فريق خصمه بأن يراه غالطاً فى البرهان . نعم يجوز ان يسميه ضالا أو مبتدعاً : أما ضالا فمن حيث إنه ضل عن الطريق عنده ، وإما مبتدعاً فمن حيث إنه ابتدع قولا لم يعهد من السلف الصالح التصريح به إذ المشهور فيما بين السلف أن الله تعالى يرى : فقول القائل لا يرى بدعة ، وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة بل إن ظهر عنده أن تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب فينبغى أن لايظهره ولا يذكره لأن السلف لم يذكروه لكن عند هذا يقول الحنبلى إثبات الفوق لله تعالى مشهور عند السلف ولم يذكر أحد منهم أن خالق العالم ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا

ولا داخلا ولا خارجا وأن الجهات الست خالية عنه وأن نسبة جهة فوق إليه كنسبة جهة تحت ، فهذا قول بدع إذ البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف ، وعند هذا يتضح لك أن ههنا مقامين .

أحدهما : مقام عوام الخلق . والحق فيه الاتباع والكف عن تغيير الظواهر رأساً ، والحذر عن إبداع التصريح بتأويل لم تصرح به الصحابة وحسم باب السؤال رأساً والزجر عن الخوض في الكلام والبحث ، واتباع ما تشابه من الكتاب والسنة كما روى عن عمر رضى الله عنه أنه سأل سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة ، وكما روى عن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والإيمان به واجب والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة .

المقام الثانى : بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية فينبغى أن يكون بحثهم بقدر الضرورة ، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع ولا ينبغى أن يكفر بعضهم بعضاً بأن يراه غالطاً فيما يعتقده برهاناً وإن ذلك ليس أمراً هيناً سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متفق عليه يعترف كلهم به فإنهم إذا لم يتفقوا فى الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن ، وقد ذكرنا الموازين الخمسة فى كتاب (القسطاس المستقيم) وهى التى لا يتصور الخلاف فيها بعد فهمها أصلا بل يعترف كل من فهمها بأنها مدارك اليقين قطعاً والمحصلون لها يسهل عليهم عقد الانصاف والانتصاف وكشف الغطاء ووورفع الاختلاف ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف أيضاً إما لقصور بعضهم عن

إدراك تمام شروطه . وإما فى رجوعهم فى النظر إلى محض القريحة والطبع دون الوزن بالميزان كالذى يرجع بعد تمام تعلم العروض فى الشعر إلى الذوق لاستثقاله عرض كل شعر على العروض فلا يبعد أن يغلط ، وإما لاختلافهم فى العلوم التى هى مقدمات البراهين فإن من العلوم التى هى أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها ، والناس يختلفون فى التجربة والتواتر فقد يتواتر عند واحد مالا يتواتر عند غيره ، وقد يتولى تجربة مالا يتولاه غيره . وإما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل . وإما لالتباس الكليات المشهورة المحمودة بالضروريات والأوليـــات كما فصلنا ذلك فى كتاب (محك النظر) ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموازين . وحققوها أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على موقع الغلط على يسر .

فصل

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغى أن يبادر أيضا إلى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه فإن كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره وذلك كقول بعض الصوفية إن المراد برؤية الخليل عليه الســـلام الكوكب والقمر والشمس وقوله هذا ربى غير ظاهرها بل هى جواهر نورانية ملكية ونورانيتها عقلية لا حسية ولها درجات فى الكمال . ونسبة ما بينها فى التفاوت كنسبة الكواكب والقمر والشمس ، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام أجل من أن يعتقد فى جسم أنه إله حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله أفترى أنه لو لم يأفل أكان يتخذه إلهاً ولو لم يعرف

فاستحالة الإلهية من حيث كونه جسما مقدراً ، واستدل بأنه كيف يمكن أن يكون اول ما رآه الكوكب والشمس هي الأظهر وهي أول ما يرى . واستدل بأن الله تعالى قال اولا (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والارض) ثم حكى هذا القول فكيف يمكن ان يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له — وهذه دلالات ظنيه وليست براهين .

أما قوله هو اجل من ذلك فقد قيل إنه كان صبيا لما جرى له ذلك ولا يبعد ان يخطر لمن سيكون نبيا في صباه مثل هذا الخاطر ثم يتجاوزه على قرب ولا يبعد ان تكون دلالة الافول على حدوث عنده أظهر من ادلة التقدير والجسميه .

واما رؤية الكوكب أولا فقد روى أنه كان محبوسا في صباه في غار وإنما خرج بالليل .

وأما قوله تعالى أولا (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) فيجوز أن يكون الله تعالى قد ذكر حال نهايته ثم رجع إلى ذكر بدايته — فهذه وامثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه — فهذا جنس تأويلهم . وقد تاولوا العصا والنعلين في قوله تعالى (اخلع نعليك) وقوله (والق ما في يمينك) ولعل الظن في مثل هذه الامور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد تجرى مجرى البرهان في أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدى إلى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصه صاحبه في كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره ، ويقرب منه قول بعض الباطنه ان عجل

السامرى مؤول إذ كيف يخلو خلق كثير عن عاقل يعلم أن المتخذ من الذهب لا يكون إلهاً وهذا أيضاً ظن إذ لا يستحيل أن تنتهى طائفة من الناس إليه كعبدة الأصنام ، وكونه نادراً لا يورث يقينا .

وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذى ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع فيجب تكفيره قطعياً إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد ، وذكر ذلك عظيم الضرر فى الدين فيجب تكفير كل من تعلق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة . وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه أو لا يعلم إلا الكليات ، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فـلا يعلمها لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل إذ أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجساد وتفهيم تعلق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجرى على الأشخاص يجاوز حداً لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل — ولكن قالوا لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم فى أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة فى قلوبهم جاز للرسول عليه السلام أن يفهمهم ذلك وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله وهـذا القول باطل قطعا لأنه

تصريح بالتكذيب ، ثم طلب عذراً فى أنه لم يكذب ، ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة ففى الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب وهذه أول درجات الزندقة ، وهى رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة فإن المعتزلة يقرب منهاجهم من مناهج الفلاسفة إلا فى هذا الأمر الواحد ، وهو أن المعتزلى لايجوز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه ، والفلسفى لايقتصر على مجاوزته للظاهر على مايقبل التأويل على قرب أو على بعد .

وأما الزندقة المطلقة فهو أن تنكر أصل المعاد عقليا وحسيا وتنكر الصانع للعالم أصلا ورأسا .

وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء وظاهر ظنى — والعلم عند الله — أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام « ستفترق أمتى بضعا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة إلا الزنادقة وهى فرقة » هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به الزنادقة من أمته إذ قال « ستفترق أمتى » ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته إذ يزعمون أن الموت عدم محض ، وأن العالم لم يزل كذلك موجودا بنفسه من

غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . وينسبون الأنبياء إلى التلبيس فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة فإذاً لامعنى لزندقه هـــذه الامة إلا ما ذكرناه .

فصل

اعلم أن شرح مايكفر به ومالا يكفر به يستدعى تفصيلا طويلا يفتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب ، وذكر شبهة كل واحد ، ودليله ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله وذلك لايحويه مجلدات ولا تتسع لشرح ذلك أوقاتى فاقنع الآن بوصيه وقانون .

اما الوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ماداموا قائلين لا إله إلا محمد رسول الله غير مناقضين لها . والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر أو غير عذر فإن التكفير فيه خطر والسكوت لاخطر فيه .

واما القانون فهو ان تعلم أن النظريات قسمان . قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع ، واصول الإيمان ثلاثه : الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الاخر وماعداه فروع . واعلم أنـــه لاتكفير فى الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر اصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر لكن فى بعضها تخطئه كما فى الفقهيات وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة واحوال الصحابة .

واعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لايوجب شىء منه تكفيرا . فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب

الإمامة ولايلزم تكفيره ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلا ، ومهما وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان فى الفروع . فلو قال قائل مثلا البيت الذى بمكة ليس الكعبة التى أمر الله تعالى بحجها فهذا كفر إذ قد ثبت تواترا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافه ، ولو أنكر شهادة الرسول لذلك البيت بأنه الكعبة لم ينفعه إنكاره بل يعلم قطعاً أنه معاند فى إنكاره إلا ان يكون قريب عهد بالإسلام ، ولم يتواتر عنده ذلك — وكذلك من نسب عائشة رضى الله عنها إلى الفاحشة ، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر لأن هــذا وأمثاله لا يمكن إلا بتكذيب الرسول أو إنكار التواتر ، والتواتر ينكره الإنسان بلسانه ولا يمكنه أن يجهله بقلبه نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو أنكر ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه . وأنكر النظام كون الإجماع حجة أصلا فصار كون الإجماع حجة مختلف فيه وهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة وكل مالم يحتمل التأويل فى نفسه وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض . ومثاله ما ذكرناه من حشر الأجساد والجنة والنار وإحاطة علم الله

تعالى بتفاصيل الأمور وما يتطرق إليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد فننظر فيه إلى البرهان فإن كان قاطعاً وجب القول به ، ولكن إن كان فى إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فإظهاره بدعة وإن لم يكن البرهان قطعياً لكن يفيد ظنا غالباً ، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره فى الدين كنفى المعتزلى الرؤية عن الله تعالى . فهذه بدعة وليس بكفر .

وأما ما يظهر له ضرر فيقع فى محل الاجتهاد والنظر فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر . ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة وحل له شرب الخمر والمعاصى وأكل مال السلطان . فهذا ممن لا شك فى وجوب قتله وإن كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر ، وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد . وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالاباحة مطلقاً فإنه يمنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره . وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته فى الدين وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصى بظاهره وهو بباطنه برىء عنهـــا . ويتداعى هذا إلى أن يدعى كل فاسق مثل حالة وينحل به عصام الدين . ولا ينبغى أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغى أن يدرك قطعا فى كل مقام بل التكفير حكم شرعى يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود فى النـــار . فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية .

فتارة يدرك بيقين وتارة بظن غالب . وتارة يتردد فيه ، ومهما حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ، والمبادرة إلى التكفير أنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل ، ولابد من التنبيه على قاعدة أخرى وهو أن المخالف قد يخالف نصاً متواتراً ويزعم أنه مؤول ولكن ذكر تأويله لا انقداح له أصلا فى اللسان لا على بعد ولا على قرب فذلك كفر . وصاحبه مكذب وإن كان يزعم أنه مؤول : مثاله : ما رأيته فى كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطى الوحدة ويخلقها . وعالم بمعنى أنه يعطى العلم لغيره ويخلقه ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره ، وإما أن يكون واحداً فى نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا . وهذا كفر صراح لأن حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل فى شىء ولا تحتمله لغة العرب أصلا ، ولوكان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقه الوحدة لسمى ثلاثاً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً . فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات .

فصل

قد فهمت من هذه التكفيرات أن النظر فى التكفير يتعلق بأمور .

أحدها : أن النص الشرعى الذى عدل به عن ظاهره هل يحتمل التاويل أم لا ؟ فإن احتمل فهل هو قريب أم بعيـــد ؟ ومعرفة ما يقبل التاويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهين بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة العارف باصولها ، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوزاتها ومناهجها فى ضروب الأمثال .

الثـانى : فى النص المتروك أنه ثبت تواتراً أو آحاداً أو بالإجماع المجرد فان ثبت تواتراً فهو على شرط التواتر أم لا إذ ربما يظن المستفيض تواتراً ، وحد التواتر ما لا يمكن الشك فيه كالعلم بوجود الانبياء ووجود البلاد المشهورة وغيرها وأنه متواتر فى الاعصار كلها عصراً بعد عصر إلى زمان النبوة فهل يتصور أن يكون قد نقص عدد التواتر فى عصر من الاعصار ؟ وشرط التواتر أن لا يحتمل ذلك كما فى القرآن أما فى غير القرآن فيغمض مدرك ذلك جـــداً ولا يستقل بإدراكه إلا الباحثون عن كتب التواريخ واحوال القرون الماضيه وكتب الاحاديث وأحوال الرجال واغراضهم فى نقل المقالات إذ قد يوجد عدد التواتر فى كل عصر ولا يحصل به العلم اذ كان يتصور ان يكون للجمع الـكثير رابطة فى التوافق لاسيما بعد وقوع التعصب بين ارباب المذاهب ولذلك ترى الروافض يدعون النص على على بن ابى طالب رضى الله عنه فى الإمامة لتواتره عندهم ، وتواتر عند خصومهم فى اشياء كثيرة خلاف ما تواتر عندهم لشدة توافق الروافض على اقامة اكاذيبهم واتباعها .

وأما ما يستند الى الإجماع فدرك ذلك من أغمض الأشياء إذ شرطه أن يجتمع أهل الحل والعقد فى صعيد واحد فيتفقوا على أمر واحد اتفاقاً بلفظ صريح ، ثم يستمروا عليه مرة عند قوم والى تمام انقراض العصر عند قوم او يكاتبهم امام فى أقطار الأرض فيأخذ فتاويهم فى زمان واحد بحيث تتفق أقوالهم اتفاقاً صريحا حتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف بعده ، ثم النظر فى أن من خالف بعده هل يكفر ؟ لأن من الناس من قال

إذا جاز فى ذلك الوقت أن يختلفوا فيحمل توافقهم على اتفاق ولا يمتنع على واحد منهم أن يرجع بعد ذلك . وهذا غامض أيضا .

الثالث : النظر فى أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر أو هل بلغه الإجماع إذ كل من يولد لا تكون الأمور عنده متواترة ولا موضع الإجماع عنده متميزة عن مواضع الخلاف وإنما يدرك ذلك شيئا فشيئا ، وإنما يعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنفة فى الاختلاف والإجماع للسلف ثم لا يحصل العلم فى ذلك بمطالعة تصنيف ولا تصنيفين إذ لا يحصل تواتر الإجماع به وقد صنف أبو بكر الفارسى رحمه الله كتابا فى مسائل الإجماع ، وأنكر عليه كثير منه وخولف فى بعض تلك المسائل فاذاً من خالف الإجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطىء وليس بمكذب فلا يمكن تكفيره . والاستقلال بمعرفة التحقيق فى هذا ليس بيسير .

الرابع : النظر فى دليله الباعث له على مخالفة الظاهر أهو على شرائط البرهان أم لا ؟ ومعرفة شرط البرهان لا يمكن شرحها إلا فى مجلدات وما ذكرنا فى كتاب (القسطاس المستقيم) وكتاب (محك النظر) أنموذج منه ، وتكل قريحة أكثر فقهاء الزمان عن قص شروط البرهان على الاستيفاء ولا بد من معرفة ذلك فإن البرهان إذا كان قاطعا رخص فى التأويل وإن كان بعيداً . فإذا لم يكن قاطعا لم يرخص إلا فى تأويل قريب سابق إلى الفهم .

الخامس : النظر فى أن ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها فى الدين أم لا ؟ فإن مالا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه أسهل وإن كان القول شنيعا وظاهر البطلان كقول الإمامية المنتظرة أن الإمام مختف فى سرداب

فإنه ينتظر خروجه فإنه قول كاذب ظاهر البطلان شنيع جداً ، ولكن لا ضرر فيه على الدين إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئا وهذا مثال . والمقصود أنه لا ينبغي ان يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان . فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل بآحادها المبرزون علمت ان المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعرى او غيره جاهل مجازف ، وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم وفى اى ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم فإذا رأيت الفقيه الذى بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك فإن التحدى بالعلوم غريزة فى الطبع لا يصبر عنه الجهال ولاجله كثر الخلاف بين الناس ولو سكت من لا يدرى لقل الخلاف بين الخلق .

فصل

من أشد الناس غلواً وإسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين ، وزعموا ان من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر — فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده اولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيا إذ ظهر لهم فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة رضى الله عنهم حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام

والأدلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد أبدع حد الإبداع ، بل الإيمان نور يقذفه الله فى قلوب عبيده عطية وهدية من عنده . تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها . وتارة بسبب رؤيا فى المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال . فقد جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم جاحداً به منكراً فلما وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفا وكرامة فرأها يتلألأ منها أنوار النبوة قال والله ماهذا بوجه كذاب . وساله أن يعرض عليه الإسلام فاسلم ، وجاء آخر إليه عليه الصلاة والسلام وقال أنشدك الله الله بعثك نبيا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إى . والله : الله بعثنى نبيا . فصدقه بيمينه وأسلم ، وهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشتغل واحد منهم بالكلام وتعليم الأدلة بل كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لاتزال تزداد إشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب فليت شعرى متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة رضى الله عنهم إحضار أعرابى أسلم وقوله له الدليل على ان العالم حادث أنه لايخلو عن الاعراض وما لايخلو عن الحوادث حادث وأن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة عن الذات لاهى هو ولا هى غيره إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين .

ولست أقول لم تجر هذه الألفاظ ولم يجر أيضا مامعناه معنى هذه الألفاظ بل كان لاتنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف وجماعة من الأسارى يسلمون واحداً واحداً بعد

طول الزمان أو على القرب وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها ، نعم لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان فى حق بعض الناس، ولكن ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضاً نادر بل الأنفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن . فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامى لا لكونه حقاً فى نفسه . وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد فى قلبه ولذلك لاترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ولا عن مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنفية ولا على العكس . وتجرى هذه الانتقالات بأسباب أخر حتى فى القتال بالسيف ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال ، وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرحنا بأن الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين : رجل وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظى ولا بخبر نقلى عن رسول الله فيجوز أن يكون القول المرتب الكلامى رافعاً شبهته ودواء له فى مرضه فيستعمل معه ذلك ويحرس عنه سمع الصحيح الذى ليس به ذلك المرض فإنه يوشك أن يحرك فى نفسه إشكالا ويثير له شبهة تمرضه وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح .

والثانى : شخص كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الإيمان

بأنوار اليقين يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوي بها مريضا إذا وقعت له شبهة وليفحم بها مبتدعا اذا نبغ وليحرس به معتقده اذا قصد مبتدع اغواءه فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات وتعلم قدر ما يزيل به الشك ويدرأ الشبهة في حق المشكل فرض عين اذا لم يمكن اعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه . والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقاداً جزما فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلته بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً مشرف على التزاول بكل شبهة بل الايمان الراسخ ايمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال لا يمكن التعبير عنها وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر فإن من تمادت به العبادة الى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا وملازمة ذكر الله تعالى دائما تجلت له أنوار المعرفة وصارت الأمور التي كان قد أخذها تقليداً عنده كالمعاينة والمشاهدة وذلك حقيقة المعرفة التي لا تحصل الا بعد انحلال عقدة الاعتقادات وانشراح الصدر بنور الله تعالى . (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام فهو على نور من ربه) كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شرح الصدر فقال « نور يقذف في قلب المؤمن » فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور والإنابة الى دار الخلود » . فبهذا يعلم أن المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها غير مدرك حقيقة المعرفة ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعا .

فصـل

لعلك تقول أنت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية . والشارع صلوات الله عليه هو الذى ضيق الرحمة على الخلق دون المتكلم إذ قال عليه السلام « يقول الله تعالى لآدم عليه السلام يوم القيامة يا آدم ابعث من ذريتك بعث النار . فيقول يارب من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . وقال عليه الصلاة والسلام « ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة الناجية منها واحدة » .

الجواب : أن الحديث الأول صحيح ولكن ليس المعنى به أنهم كفار مخلدون بل إنهم يدخلون النار ويعرضون عليها ويتركون فيها بقدر معاصيهم ، والمعصوم من المعاصى لا يكون فى الألف إلا واحداً وكذلك قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) ثم بعث النار عبارة عمن استوجب النار بذنوبه ويجوز أن يصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة كما وردت به الأخبار ، وتشهد له الأخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى وهى أكثر من ان تحصى . فمنهم ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت . فقدت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فابتغته فإذا هو فى مشربة يصلى فرأيت على رأسه أنواراً ثلاثة فلما قضى صلاته قال : مهم من هذه ؟ قلت أنا عائشة يارسول الله . قال : أرأيت الأنوار الثلاثة ، قلت : نعم يارسول الله قال : إن آت أتانى من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا بغير حساب ولا عذاب ، ثم أتانى فى النور الثانى آت من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من

أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً بغـــير حساب ولا عذاب ، ثم أتانى فى النور الثالث آت من ربى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب . فقلت يا رسول الله لا تبلغ أمتك هـذا . قال يكملون لـكم من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلى ـــ فهـــذا وأمثاله من الأخبار الدالة على سعة رحمة الله تعـالى كثير . فهذا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، وأنا أقول إن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة وإن كان أكثرهم يعرضون على النـار إما عرضة خفيفة حتى فى لحظة أو فى ساعة ، وإما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار بل أقول إن أكثر نصارى الروم والترك فى هـــذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء تعـــالى أعنى الذين هم فى أقاصى الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة فإنهم ثلاثة أصناف : صنف لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم أصلا فهم معذورون . وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليـه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم وهم الـكفار الملحدون . وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا أيضاً منـــذ الصبا أن كذابا ملبسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع بعثه الله تحدى بالنبوة كاذبا فهؤلاء عندى فى أوصافه فى معنى الصنف الأول فإنهم مع أنهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه وهذا لايحرك داعية النظر فى الطلب .

وأما الحديث الآخر وهو قوله : الناجية منها واحدة . فالرواية مختلفة فيه . فقد روى الهالـكة منها واحدة ولـكن الأشهر تلك الرواية ،

ومعنى الناجية هي التي لا تعرض على النار ، ولا تحتاج إلى الشفاعة بل الذي تتعلق به الزبانية لتجره إلى النار فليس بناج على الإطلاق وإن انتزع بالشفاعة من مخالبهم : وفي رواية كلها في الجنة إلا الزنادقة وهي فرقة : ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة وهي التي تخلد في النار ، ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس عن صلاحه لأن الهالك لا يرجى له بعد الهلاك خير وتكون الناجية واحدة وهي التي تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة لأن من نوقش الحساب فقد عذب فليس بناج إذاً ومن عرض للشفاعة فقد عرض للذلة فليس بناج أيضا على الإطلاق وهذان طرفان وهما عبارتان عن شر الخلق وخيره . وباقي الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين : فمنهم من يعذب بالحساب فقط : ومنهم من يقرب من النار ثم يصرف بالشفاعة ومنهم من يدخل النار ثم يخرج على قدر خطاياهم في عقائدهم وبدعتهم وعلى كثرة معاصيهم وقلتها . فأما الهالكة المخلدة في النار من هذه الأمة فهي فرقة واحدة وهي التي كذبت وجوزت الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمصلحة .

وأما من سائر الأمم . فمن كذبه بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة كشق القمر وتسبيح الحصى ونبع الماء من بين أصابعه والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق فهذا هو الجاحد الكاذب وهو الكافر ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد

المسلمين بل أقول من قرع سمعه هذا فلا بد أن تنبعث به داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فان لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا وخلوه عن الخوف وخطر أمر الدين وذلك كفر : وإن انبعثت الداعية فقصر فى الطلب فهو ايضاً كفر بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من اهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالاسباب الخارقة للعادة فان اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو ايضا مغفور له ثم له الرحمة الواسعة : فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهيه بالموازين المختصرة الرسمية .

واعلم أن الآخرة قريب من الدنيا فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكما أن اكثر اهل الدنيا فى نعمة وسلامه او فى حالة يغبطها إذ لو خير بينها وبين الإماتة والإعدام مثلا لاختارها وإنما المعذب الذى يتمنى الموت نادر فكذلك المخلدون فى النار بالإضافة إلى الناجحين والمخرجين منها فى الآخرة نادر فان صفة الرحمه لا تتغير باختلاف أحوالنا ، وإنما الدنيا والاخرة عبارتان عن اختلاف احوالك ولولا هـــذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : « اول ما خط الله فى الكتاب الاول انا الله لا إله إلا انا سبقت رحمتى غضبى فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة » .

واعلم أن اهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها بأسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الاخبار والاثار ولكن ذكر ذلك يطول . فابشر برحمه الله وبالنجاة المطلقة ان جمعت بين الإيمان والعمل

الصالح ، وبالهلاك المطلق ان خلوت عنهما جميعاً : وان كنت صاحب يقين فى أصل التصديق وصاحب خطأ فى بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خلط فى الأعمال فلا تطمع فى النجاة المطلقة .

واعلم أنك بين أن تعذب مدة ثم تخلى وبين أن يشفع فيك من تيقنت صدقه فى جميع ما جاء به أو غيره فاجتهد أن يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء فان الأمر فى ذلك مخطر .

فصل

قد ظن بعض الناس أن مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع وأن الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن فيقال له الحكم بإباحة الدم والخلود فى النار حكم شرعى لا معنى له قبل ورود الشرع وان أراد به أن المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله هو الكافر — فهذا لا يمكن حصره فيه لأن الجاهل بالرسول وبالآخرة أيضاً كافر : ثم ان خصص ذلك بالجهل بذات الله تعالى بجحد وجوده أو وحدانيته ولم يطرده فى الصفات فربما سوعد عليه : وان جعل المخطىء فى الصفات أيضاً جاهلا أو كافراً لزمه تكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم ، ومن نفى الكلام وصفا زائدا على العلم ، ومن نفى السمع والبصر زائداً على العلم ، ومن نفى جواز الرؤية ، ومن أثبت الجهة وأثبت ارادة حادثة لا فى ذاته ولا فى محل وتكفير المخالفين فيه ، وبالجملة يلزمه التكفير فى كل مسألة تتعلق بصفات الله تعالى وذلك حكم لا مستند له ، وان خصص ببعض الصفات دون بعض لم يجد لذلك فصلا ومرداً ، ولا وجه

له إلا الضبط بالتكذيب ليعم المكذب بالرسول وبالمعاد ، ويخرج منه المؤول : ثم لا يبعد أن يقع الشك والنظر فى بعض المسائل من جملة التأويل أو التكذيب حتى يكون التأويل بعيداً ويقضى فيه بالظن وموجب الاجتهاد فقد عرفت أن هذه مسألة اجتهادية .

فصل

من الناس من قال انما أكفر من يكفرنى من الفرق ومن لا يكفرنى فلا . وهذا لا مأخذ له : فإن قال قائل علي رضى الله عنه أولى بالإمامة اذا لم يكن كفراً فبأن يخطىء صاحبه ويظن أن المخالف فيه كافر لا يصير كافراً ، وانما هو خطأ فى مسألة شرعية — وكذلك الحنبلى اذا لم يكفر بإثبات الجهة فلم يكفر بأن يغلط أو يظن أن نافى الجهة مكذب وليس بمتأول — وأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما » معناه أن يكفره مع معرفته بحاله فمن عرف من غيره أنه مصدق لرسول الله صلى عليه وسلم ثم يكفره فيكون المكفر كافراً . فأما إن كفره لظنه أنه كذب الرسول فهذا غلط منه فى حال شخص واحد اذ قد يظن به أنه كافر مكذب وليس كذلك وهذا لا يكون كفراً . فقد أفدناك بهذه الترديدات التنبيه على أعظم الغور فى هذه القاعدة وعلى القانون الذى ينبغى أن يتبع فيه فاقنع به والسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الولد

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين .

« اعلم » أن واحداً من الطلبة المتقدمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم ، واستكمل من فضائل النفس ، ثم إنه فكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله فقال : إني قرأت أنواعاً من العلوم ، وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها . فالآن ينبغي ان أعلم اي نوعها ينفعني غـداً ويؤانسني في قبري وايها لا ينفعني حتى اتركه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع » فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي رحمة الله تعالى عليه استفتاء : وسأل عنه مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء : وقال : وإن كان مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدى عمري إن شاء الله تعالى ، فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه والله أعلم .

(اعلم) أيهـــا الولد المحب العزيز أطال الله بقاءك بطاعته ، وسلك بك سبيل احبائه ان منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه السلام إن كان قد بلغك منه نصيحة فأى حاجة لك فى نصيحتى . وإن لم يبلغك منه فقل لى ماذا حصلت فى هذه السنين الماضيه .

ايها الولد : من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله (علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ما خلق له لجدير ان تطول عليه حسرته ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار) وفى هذه النصيحة كفاية لاهل العلم .

ايها الولد : النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها فى مذاق متبعى الهوى مرة إذ المناهى محبوبة فى قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمى مشتغل فى فضل النفس ومناقب الدنيا فإنه يحسب أن العلم المجرد له سيكون نجاته وخلاصه فيــه ، وانه مستغن عن العمل — وهذا اعتقاد الفلاسفة : سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر انه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد كما قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم « اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » وروى ان الجنيد قدس الله سره رئى فى المنام بعد موته فقيل له ما الخبر يا ابا القاسم ؟ قال طاحت تلك العبارات ، وفنيت تلك الإشارات وما نفعنا إلا ركعيات ركعناها فى جوف الليل .

أيها الولد : لا تكن من الأعمال مفلساً ، ولا من الأحوال خالياً وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد مثاله : لو كان على رجل فى برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى ، وكان الرجل شجاعاً وأهــل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها — فمن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب ، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل ، ومثله أيضاً لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوى يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما (شعر) :

كرمى دواهزار رطل همى بيمائى تامى نخورى نباشدت شيدائى[1]

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً) (جزاء بما كانوا يكسبون) (إن الذين آمنــوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً) وما تقول فى هــذا الحديث « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

(١) نعم ما ترجم به هذا البيت حضرة الأستاذ الفاضل الجليل مرشد السالكين الشيخ محمد أمين الكردى النقشبندى عليه الرحمة فقال :

(لوكلت ألفى رطل خمر لم تكن لتصير نشواناً إذا لم تشرب)

وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريب من المحسنين ، ولو قيل أيضاً يبلغ بمجرد الإيمان ، قلنا نعم لكن متى يبلغ ، وكم من عقبة كئود يقطعها إلى أن يصل ، فأول تلك العقبات عقبة الإيمان وأنه هل يسلم من سلب الإيمان أم لا ، وإذا وصل هل يكون خائناً مفلساً ، وقال الحسن البصري يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة : ادخلوا يا عبادى الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم .

أيها الولد : مالم تعمل لم تجد الأجر (حكى) أن رجلا من بنى إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة فأرسل الله إليه ملكا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة . فلما بلغه قال العابد : نحن خلقنا للعبادة فينبغى لنا أن نعبده فلما رجع الملك قال إلهى أنت أعلم بما قال . فقال الله تعالى إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه ، اشهدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له ، قال رسول الله صلى عليه وسلم «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ». وقال على رضى الله عنه (من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن ، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن) وقال الحسن رحمه الله تعالى (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب) وقال علامة الحقيقة

ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع هواه وتمنى على الله تعالى الأمانى » .

أيها الولد : كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم ، لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والامثال فويل لك ثم ويل لك . وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبى صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعراً :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

أيها الولد : عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به .

أيها الولد : أى شىء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال ، إنى رأيت فى إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام قال من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالا ، أوله يقول عبدى طهرت منظر الخلق سنين وما طهرت منظرى ساعة وكل يوم ينظر فى قلبك يقول : ما تصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى أما أنت أصم لا تسمع .

أيها الولد : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون .

واعلم أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى ولا يحملك على الطاعة ولن يبعدك غداً عن نار جهنم ، وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيامة . فارجعنا نعمل صالحاً — فيقال يا أحمق أنت من هناك تجىء .

أيها الولد : اجعل الهمة فى الروح والهزيمة فى النفس والموت فى البدن لأن منزلك القبر ، وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة متى تصل إليهم : إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذه الأجساد قفص الطيور وإصطبل الدواب فتفكر فى نفسك من أيهما أنت — إن كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل ارجعى إلى ربك تطير صاعداً إلى أن تقعد فى أعالى بروج الجنان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اهتز عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ » والعياذ بالله إن كنت من الدواب كما قال الله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار ، وروى أن الحسن البصرى رحمة الله تعالى أعطى شربة ماء بارد فأخذ القدح ، غشى عليه وسقط من يده فلما أفاق قيل له مالك ، يا أبا سعيد : قال ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

أيها الولد : لو كان العلم المجرد كافياً لك ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء — هل من سائل هل من مستغفر هل من تائب

ضائعاً بلا فائدة ، وروى أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر عنـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال . نعم الرجل هو لو كان يصلى بالليل ، وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه « يا فلان لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة» :

أيها الولد : ومن الليل فتهجد به : أمر ، وبالأسحار هم يستغفرون شكر ، والمستغفرون بالأسحار ذكر ، قال عليه السلام « ثلاثة أصوات يحبها الله تعـالى : صوت الديك ، وصوت الذى يقرأ القرآن ، وصوت المستغفرين بالأسحار » قال سفيان الثورى رحمة الله تعالى عليه إن الله تبارك وتعالى خلق ريحاً تهب بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار ، وقال أيضاً إذا كان أول الليل ينادى مناد من تحت العرش ألا ليقم العـابدون فيقومون ويصلون ما شاء الله ، ثم ينادى مناد فى شطر الليـــل ألا ليقم القانتون فيقومون ويصلون إلى السحر ، فإذا كان السحر نادى مناد ألا ليقم المستغفرون فيقومون ويستغفرون : فإذا طلع الفجر نادى مناد ألا ليقم الغافلون فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم .

أيها الولد : روى فى وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال يابنى لا يكونن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ولقد أحسن من قال شعراً :

لقد هتفت فى جنح ليل حمامة　　　على فنن وهنا وإنى لنـائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا لما سبقتنى بالبكاء الحمائم
وأزعم أنى هائم ذو صبابة لربى فلا أبكى وتبكى البهائم

أيها الولد : خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ماهى .

أعلم : أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع فى الاوامر والنواهى بالقول والفعل . يعنى كل ماتقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا أو صليت فى ثوب مغصوب وإن كانت صورة عبادة تأثم .

أيها الولد : ينبغى لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة ، وينبغى لك أن لاتغتر بالشطح وطامات الصوفية لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والترهات (واعلم) أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة حتى لاتقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيى قلبك بأنوار المعرفة واعلم بان بعض مسائلك التى سألتنى عنها لايستقيم جوابها بالكتابة والقول لن لم تبلغ تلك الحالة تعرف ماهى وإلا فعلمها من المستحيلات لانها ذوقية ، وكل مايكون ذوقيا لايستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو ومرارة المر لايعرف إلا بالذوق . كما حكى أن عنينا كتب إلى صاحب له أن عرفنى لذة المجامعة كيف تكون فكتب له فى جوابه : يافلان إنى كنت حسبتك عنيناً فقط ـ الآن عرفت أنك عنين

وأحق — لأن هذه اللذة ذوقية إن تصل إليها تعرف وإلا لايستقيم وصفها بالقول والكتابة .

أيها الولد : بعض مسائلك من هذا القبيل — وأما البعض الذى يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى إحياء العلوم وغيره . ونذكر ههنا نبذا منه ونشير إليه فنقول : قد وجب على السالك أربعة أمور الأمر الأول : اعتقاد صحيح لايكون فيه بدعه . والثانى : توبة نصوح لايرجع بعدها إلى الزلة (والثالث) استرضاء الخصوم حتى لايبقى لأحد عليك حق . والرابع : تحصيل علم الشريعة قدر ماتؤدى به أوامر الله تعالى . ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة . حكى أن الشبلى رحمه الله خدم أربعمائة استاذ ، وقال قرأت أربعة آلاف حديث : ثم اخترت منها حديثاً واحداً وعملت بة وخليت ماسواه لأنى تأملته فوجدت خلاصى ونجاتى فيه . وكان علم الأولين والآخرين كله مندرجاً فيه فاكتفيت به وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه (اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها ، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها واعمل لله بقدر حاجتك إليه واعمل للنار بقدر صبرك عليها) .

أيها الولد : إذا علمت هـذا الحديث لاحاجة إلى العلم الكثير وتأمل فى حكاية أخرى — وذلك أن حاتما الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخى رحمة الله تعالى عليهما . فسأله يوماً قال صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ماحصلت فيها . قال . حصلت ثمانى فوائد من العلم وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها . فقال شقيق ماهى ! قال

حاتم الأصم . الفائدة الأولى : إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً يحبه ويعشقه وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضه إلى شفير القبر . ثم يرجع كله ويتركه فريداً وحيداً ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد . فتفكرت وقلت أفضل محبوب المرء ما يدخل معه فى قبره ويؤانسه فيه فما وجدته غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوباً لى لتكون سراجاً لى فى قبرى ، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريداً . الفائدة الثانية : إنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأملت قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسى وتشمرت بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت . الفائدة الثالثة : إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكها قابضاً يده عليه فتأملت فى قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فبذلت محصولى من الدنيا لوجه الله تعالى ؟ ففرقته بين المساكين لتكون ذخراً لى عند الله تعالى . الفائدة الرابعة : إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاغتربهم : وزعم آخرون أنه فى ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم ، واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره وتأملت فى قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق

وظنهم وحسباتهم كلها باطل زائل الفائدة . الخامسة : إنى رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعضا فوجدت ذلك من الحسد فى المال والجاه والعلم فتأملت فى قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى فى الأزل فما حسدت أحداً ورضيت بقسمه الله تعالى . الفائدة السادسة : إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضا لغرض وسبب فتأملت قوله تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) فعلمت انه لا يجوز عدوة احد غير الشيطان . والفائدة السابعه . إنى رايت كل احد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به فى شبهه وحرام ، ويذل نفسه ، وينقص قدره فتأملت فى قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) فعلمت ان رزقى على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه . الفائدة الثامنه : إنى رايت كل واحد معتمدا على شىء مخلوق بعضهم إلى الدينار والدرهم وبعضهم إلى المال والملك وبعضهم إلى الحرفه والصناعه ، وبعضهم إلى مخلوق مثله فتاملت فى قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا) فتوكلت على الله تعالى فهو حسبى ونعم الوكيل فقال شقيق : وفقك الله تعالى إنى قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت الكتب الاربعه تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الاربعه .

ايها الولد : قــــد علمت من هاتين الحكايتين انك لا تحتاج إلى

كثير العلم ، والآن أبين مايجب على سالك سبيل الحق (فاعلم) أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربي ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ويجعل مكانها خلقا حسنا . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه ولا بد للسالك من شيخ يؤديه ويرشده إلى سبيل الله تعالى لأن الله أرسل للعباد رسولا للارشاد إلى سبيله ، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى ، وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يكون عالما - ولكن لا كل عالم يصلح للخلافه ، وإني ابين لك بعض علامته على سبيل الإجمال حتى لا يدعي كل احد انه مرشد فنقول : من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه وكان قد تابع لشخص بصير يتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وكان محسنا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم . وكثرة الصلوات والصدقه والصوم ، وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والقناعة وطمانينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني وأمثالها فهو إذا نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم يصلح للاقتداء به . ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر ، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخا كما ذكرنا وقبله الشيخ ينبغي ان يحترمه ظاهرا وباطنا . أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله ولا يشتغل

بالاحتجاج معه فى كل مسألة وإن علم خطأه ، ولا يلقى بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاه فإذا فرغ يرفعها ، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته ، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته .
وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه فى الظاهر لاينكره فى الباطن لا فعلا ولا قولا لئلا يتسم بالنفاق ، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنة ظاهره . ويحترز عن مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه فيصفى عن لوث الشيطنة ، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى . ثم اعلم أن التصوف له خصلتان الاستقامة والسكون عن الخلق ، فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفى . والاستقامة أن يفدى حظ نفسه لنفسه ، وحسن الخلق مع الناس أن لاتحمل الناس على مراد نفسك بل تحمل نفسك على مرادهم مالم يخالفوا الشرع ثم إنك سالتنى عن العبودية وهى ثلاثة أشياء أحدها : محافظة أمر الشرع ، وثانيها : الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى ، وثالثها : ترك رضاء نفسك فى طلب رضاء الله تعالى ، وسألتنى عن التوكل هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد يعنى تعتقد أن ماقدر لك سيصل إليك لا محالة وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك ، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم . وسألتنى عن الإخلاص وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالى بمذمتهم (واعلم) أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق ، وعلاجه أن تراهم مسخرين

تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات فى عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراءاتهم ، ومتى تحسبهم ذوى قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء .

أيها الولد : والباقى من مسائلك بعضها مسطور فى مصنفاتى فاطلبه ثمة وكتابة بعضها حرام اعمل أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم .

أيها الولد : بعد اليوم لا تسألنى ما أشكل عليك إلا بلسان الجنان قوله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال (فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) ولا تستعجل حتى يبلغ او انه يكشف لك وتراه (ساريكم آياتى فلا تستعجلون) فلا تسألنى قبل الوقت : وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى (او لم يسيروا فى الأرض فينظروا) .

أيها الولد : بالله إن تسر تر العجائب فى كل منزل ، وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح كما قال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى لأحد من تلامذته ، إن قدرت على بذل الروح فتعال وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية .

أيها الولد : إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة ، تعمل منها اربعة ، وتدع منها اربعة أما اللواتى تدع . أحدها : أن لا تناظر أحداً فى مسألة ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها إذ هى منبع كل خلق ذميم

كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها ، نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو قوم وكانت إرادتك فيها أن تظهر الحق ولا يضيع جاز البحث لكن لتلك الإرادة علامتان . إحداهما : أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك والثانية : أن يكون البحث فى الخلاء أحب إليك من أن يكون فى الملأ — واسمع إنى أذكر لك ههنا فائدة . واعلم : أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعى لإصلاح مرضه . واعلم : أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء الأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح . وإذا كانت العلة مزمنة أو عقيما لا تقبل العلاج فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لا يقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر ثم اعلم : أن مرض الجهل على أربعة أنواع . أحدها : يقبل العلاج والباقى لا يقبل . أما الذى لا يقبل ، أحدها ، من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه فلا يزيد له ذلك إلا بغضا وعداوة وحسداً ، فالطريق أن لا تشتغل بجوابه فقد قيل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغى أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه ، قال الله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار فى زرع عمله ، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل

النار الحطب « والثانى » أن تكون علته من الحماقة وهو أيضا لايقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام إنى ماعجزت عن إحياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الأحمق ؛ وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنا قليلا ويتعلم شيئا من العلم العقلى والشرعى فيسال ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذى مضى عمره فى العلوم العقلية والشرعية وهذا الأحمق لم يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضا مشكل للعالم الكبير ، فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة ، فينبغى أن لايشتغل بجوابه « والثالث » أن يكون مسترشدا وكل مالا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه وكان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليدا لايدرك الحقائق فلا ينبغى الاشتغال بجوابه أيضا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » وأما المرض الذى يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشداً عاقلا فهما لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة والجاه والمال ، ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان ، وهذا يقبل العلاج فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته ، والثانى مما تدع وهو أن تحذر من أن تكون واعظا ومذكراً لأن فيه آفة كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولا ثم تعظ به الناس فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام ، يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى من ربك وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين . الأولى : عن التكلف فى الكلام بالعبارات والإشارات

والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين ، والمتكلف المتجاوز عن الحد يدل على خراب الباطن وغفلة القلب ، ومعنى التذكير أن يذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه فى خدمة الخالق . ويتفكر فى عمره الماضى الذى أفناه فيما لا يعنيه ، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم الإيمان فى الخاتمة وكيفية حاله فى قبض ملك الموت ، وهل يقدر على جواب منكر ونكير ، ويهتم بحاله فى القيامة ومواقفها ، وهل يعبر عن الصراط سالما أم يقع فى الهاوية ، ويستمر ذكر هذه الأشياء فى قلبه فيزعجه عن قراره ، فغليان هذه النيران ونوحه هذه المصائب يسمى تذكيرا وإعلامهم الخلق واطلاعهم على هذه الأشياء وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضى بقدر الطاقة ويتحسروا على الايام الخالية فى غير طاعة الله تعالى ، هذه الجملة على هذا الطريق يسمى وعظا كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها فتقول الحذر الحذر فروا من السيل وهل يشتهى قلبك فى هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكليف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهى البتة فكذلك حال الواعظ فينبغى أن يجتنبها .

والخصلة الثانية : أن لا تكون همتك فى وعظك أن ينفر الخلق فى مجلسك ويظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال نعم المجلس هذا لأن كله ميل للدنيا وهو يتولد من الغفلة بل ينبغى أن يكون عزمك وهمتك

أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة ، ومن المعصية إلى الطاعة ومن الحرص إلى الزهد ، ومن البخل إلى السخاء ، ومن الغرور إلى التقوى وتحبب إليهم الآخرة وتبغض إليهم الدنيا ، وتعلمهم علم العبادة والزهد لأن الغالب فى طباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسعى فيما لا يرضى الله تعالى به والاستعثار بالأخلاق الردية فألق فى قلوبهم الرعب وروعهم وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف ، ولعل صفات باطنهم تتغير ومعاملة ظاهرهم تتبدل ، ويظهروا الحرص والرغبة فى الطاعة ، والرجوع عن المعصية — وهذا طريق الوعظ والنصيحة ، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع بل قيل إنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن طريق ويهلكهم . فيجب عليهم أن يفروا منه لأن ما يفسد هذا القائل من دينهم لا يستطيع بمثله الشيطان . ومن كانت له يد وقدرة يجب عليه أن ينزله عن منابر المواعظ ويمنعه عما باشر فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والثالث : مما تدع أنه لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم لأن رؤيتهم ومجالسهم ومخالطتهم آفة عظيمة ، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم ، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله فى ارضه . والرابع : مما تدع أن لا تقبل شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمت أنها من الحلال لأن الطمع منهم يفسد الدين لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة فى ظلمهم ، وهذا كله فساد فى الدين وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت

من دنياهم أحببتهم ومن أحب أحداً يحب طول عمره وبقائه بالضرورة وفى محبة بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عباد الله تعالى وإرادة خراب العالم ، فأى شىء يكون أضر من هذا الدين والعاقبة ، وإياك وإياك أن يخدعك استهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين فإنهم ينفقون فى الفسق والمعصية وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم فإن اللعين قد قطع اعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة . وقد ذكرناه فى إحياء العلوم فاطلبه ثمة . وأما الأربعة التى ينبغى لك أن تفعلها الأول : أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منـــه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب والذى لا ترضى لنفسك من عبدك المجازى فلا ترضى أيضاً لله تعالى وهو سيدك الحقيق . والثانى : كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه والثالث : إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغى أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكى نفسك كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس ، والإعراض عن علائق الدنيا ، وتزكى نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته ، والاتصاف بالأوصاف الحسنة ، ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه ،

أيها الولد : اسمع منى كلاماً آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصاً لو أنك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يختارك وزيراً : اعلم : أنك فى تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها والآن تفكر الى ما أشرت به فإنك فهم والكلام الفرد يكفى ، أليس قال رسول الله عليه السلام (ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم) وان أردت علم أحوال القلب فانظر الى الإحياء وغيره من مصنفاتى . وهذا العلم فرض عين وغيره فرض كفاية الا مقدار ما يؤدى به فرائض الله تعالى وهو يوفقك حتى تحصله . والرابع : أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة كما كان رسول الله عليه السلام يعد ذلك لبعض حجراته وقال (اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا) ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن فى قلبها ضعفاً — وأما من كانت صاحبة يقين ما كان يعد لها أكثر من قوت يوم ونصف .

أيها الولد : انى كتبت فى هذا الفصل ملتمساتك فينبغى لك أن تعمل بها ولا تنسانى فيه من أن تذكرنى فى صالح دعائك ، واما الدعاء الذى سألت منى فاطلبه من دعوات الصحاح واقرا هذا الدعاء فى اوقاتك خصوصاً اعقاب صلواتك ، اللهم انى اسالك من النعمه تمامها ، ومن العصمه دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش ارغده ، ومن العمر أسعده ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الانعام

أعمه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أقربه ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل الى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومن علينا بإصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا وفى دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا ، اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة ، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة . وخفف عنا ثقل الأوزار ، وارزقنا عيشة الأبرار . واكفنا واصرف عنا شر الأشرار ، وأعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأخواتنا من النار برحمتك ياعزيز ياغفار ياكريم ياستار ياعليم ياجبار يالله يالله يالله برحمتك ياأرحم الراحمين . ويأول الأولين ، ويا آخر الآخرين ويإذا القوة المتين ، ويأرحم المساكين ، ويأرحم الراحمين ، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس

القسطاس المستقيم

منهاج العارفين

الرسالة اللدنية

فيصل التفرقة

أيها الولد